الإبداع الدلالي للوصل و الفصل عند الزمخشري فى كتابه الكشاف
(بحث فى تعالق التراكيب النحوية)

د. حمدي علي بدوي أحمد (*)

الحمد لله حمد معترف بذنبه، و مقر بوحدانية ربه، و الصلاة و السلام على من لا نبى بعده، سيدنا محمد، صلى الله عليه و سلم، و على آله و صحبه.

أمـــا بعدُ: فيُعنى هذا البحث - فى دراسته - بالنقاط الآتية:

- **أولًا: مفهوم الوصل و الفصل فى اللغة و الاصطلاح.**
- **ثانيًا: مصطلحا الوصل و الفصل بين عبد القاهر الجرجاني (المتوفي ٤٧١هـ) و الزمخشري (المتوفى ٥٣٨هـ).**
- **ثالثًا: كمال الاتصال.**
- **رابعًا: الإبداع الدلالي للوصل.**
- **خامسًا: التوسط على سبيل الاستحسان.**
- **سادسًا: أنماط من كمال الانفصال.**
- **سابعًا: الإبداع الدلالي للفصل.**
- **ثامنًا: إضافات الزمخشري فى هذا الباب، و فيه:**
  - **أبعاد نحو النص.**
  - **أثر السياق فى آلية الوصل أو آلية الفصل.**
- **تاسعًا: الخاتمة و نتائج البحث.**

واللهَ أرجو سدادًا فى كل ما قصدتُ، وهو حَسْبِى، فإن أصبت، فبفضل الله وتوفيقه، وإن أخطأتُ فهو اجتهاد، يقبل المراجعة والإصلاح.

الباحث/ حمدي علي بدوي

(*) دكتوراه الدراسات اللغوية والنحوية وعضو وحدة قياس الجودة، والمحاضر التربوي العام بالأكاديمية المهنية للمعلمين بسوهاج.

المقدمـة:

ينطلق البحث من فرضيات ثلاث، هى:

١- اتِّساع البحث فى فنَىْ الوصل و الفصل، حتى إن بحثًا كهذا لا يستوعبه، و لا يستقصى تفاصيله.

٢- استشعار الباحث ما فى هذين الفنين من جمالٍ و أبعاد دلالية، تقوم على الترابط و الامتزاج بين المتجاورات التركيبية.

٣- إحاطة الزمخشري بالكثير من أبعاد الجمال و الدلالة فى فنى الوصل و الفصل، وولوجه إلى أبعاد النصية، مجاوزًا – بذلك – حدود نحو الجملة. و يمكن تناول ذلك على النحو الآتي:

- **أولًا مفهوم الوصل و الفصل فى اللغة و الاصطلاح:**

وَفَدَ مصطلحا الوصل والفصل إلى علم البلاغة قادمًا من علماء القراءات، إذ إن الأصل فى القرآن الكريم الوصلُ، و قد مرَّ بمراحل من عدم الاستقرار، بين مصطلحات: العطف و تركه، و بين الفصل و القطع (١)؛ بيد إنه هناك بعض المواضع التى يجب فيها الفصلُ بين التراكيب، فكان لزامًا أن يتعرض علماء القراءات لمواضع الفصل و الوصل فى مدوناتهم. و قد تأكد احتفاء القدماء بفنى الوصل و الفصل، حين جعلوهما حدًّا للبلاغة، فعرّفوها: بأنها معرفة الفصل من الوصل؛ و ذاك لغموضه، و دقة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد، إلا كمل لسائر معانى البلاغة.(٢)

وقد تحدث سيبويه (ت ١٨٠ هـ) عن الوصل بالواو من دون الفاء، و قال: و إذا أردت بالكلام أن تجريه على الاسم كما تُجرى النعت؛ لم يَجُزْ أن تُدخل الفاء، ولو قلتها بالواو حسُنت ". (٣) وقد ذكر مصطلح الفصل، فقال: " باب ما يكون فيه (هو، و أنا، و نحن) وأخواتهن فصلًا. (٤) ومن ذلك – أيضًا - مقولة أبى العباس السفَّاح لكاتبه:: قف عند مقاطع الكلام و حدوده، وإيَّاك أن تخلطَ

---

(١) انظر: الفصل و الوصل فى القرآن الكريم، د: منير سلطان، (د. ط) دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م: ٢٣

(٢) ينظر: البيان و التبيين ١: ٨٨

(٣) الكتاب، سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م: ١: ٣٩٩

(٤) الكتاب ٢: ٣٩٨

المرعيَّ بالمهمل ". ([1]) ولم يستقر هذا المصطلح - بوصفه إطارًا دلاليًّا - إلَّا على يد عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ)، ثم أَعْمل العلماء فيه قرائحهم، و شعَّبوا له، حتى صار أداة دلالية، تصل معنى بمعنى، أو تفصل معنى عن آخر؛ بأداة من أدوات الربط الظاهرة أو التقديرية. فقد برزت دلالةُ مصطلحي الفصل والوصل لدى عبد القاهر، حيث ركَّز على مبدأ الفائدة والاستقلال الدلالي، وعلى ترابط الأنساق الدلالية المكوِّنة للبنية العميقة، وأن ضابط الوصل أوالفصل هو الاعتبارُ الجمالي مع السلامة اللغوية. ([2])

ولا يقتصر باب الوصل و الفصل على الألفاظ المفردة؛ " بل يتعداها إلى ما يُعنى بأجزاء الكلام من تراكيب وجمل ، وهذا أعلى وأرفع ما فيه؛ بل يكاد البلاغي يقصر عنايته على العلاقة بين التراكيب. ([3]) لذا يجب علينا فهم القدر الرابط بين الجملتين، فإن كانتا متباينتين فتُفصل إحداهما عن الأخرى.([4])

وقد استثمر القرآن الكريم آلية الفصل و الوصل بين تراكيبه النحوية، تحقيقًا لتمام الدلالة و جماليتها، و تجنبًا للبس و سوء الفهم و اختلاط الدلالة، و تخبط التأويلات؛ فربط بين معانيه و فصل بينها، ليُحقق نوعًا من المزاوجة، والتنويع الصوتى و الدلالي، مراعيًا أفق الانتظار لدى مختلف أنماط المتلقين، أو مراعيًا لمقتضى الحال، بعيدًا عن التقيد بالروابط الظاهرة أو المقدرة، بل الأهم فى الخطاب القرآني هو وضوح الدلالة و جماليتها.

ولم تكن جمالية الوصل أو الفصل بعيدة عن تذوق الحس العربي، فقد فطن العربي لمواضعهما، فكان يتوقع الوصل، حين يشعر بترابط التراكيب، و حين يحدث خللٌ دلالى، يُتمه ما يأتى من دلالات، و كان يترقب مواطن الفصل، حين

([1]) الصناعتين، لأبى هلال العسكرى، (د. ط)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨١م: ٤٩٧

([2])انظر: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) د. محمد مفتاح، ط١، بيروت، دارة التنوير، ١٩٨٥م، و ط٣، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٢م.: ٢١ - ٢٧

([3]) ينظر: نحو المعانى، تأليف: أحمد عبد الستار الجواري، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ٢٠٠٦م: ٩٣

([4]) ينظر: البحث الدلالي فى تفسير الميزان (دراسة فى تحليل اللسان)، تأليف: كاظم مشكور، ط١، مؤسسة البلاغ، العراق، (د. ت): ٢٤٨

يقتنع بتمام دلالة المنطوق، إذ لا حاجة للوصل، بل كان يُفاضل بين أدوات الرابط، و يستعذب رابطًا عن رابطٍ؛ حتى يستقيم الشكل مع المضمون

و من ذلك ردُّ أبى بكر - رضى الله عنه – لتركيب الأعرابي: لا عافاك الله. إذ ألزمه أمرين: أحدهما: أن يفصل بين الدلالتين، الخبرية، و التى تعبِّر عنها (لا)، و تقديرها: النفى. و الإنشائية الدعائية، و يمثلها: (عافاك الله).

و الآخر: أن يضع رابطًا مقبولًا بين التركيبين، و هو – هنا – الواو العاطفة الرابطة، و لزم الفصل – هنا – حتى لا تختلط الدلالة، و لا يضيع المعنى المقصود، إذ إن دلالة الوصل هكذا تحمل معنى سيِّئًا، و هو الدعاء على المتلقى بعدم العافية، و هذا غير مقصود، أما مع الفصل و الرابط فيستقيم المعنى، ويستعذبه المتلقى، بل و يقبله، و معناه: لا أفعل و عافاك الله. نفى للخبر الأول ، دعاء بالعافية.([1]) وهذا معناه: أنه إذا اشتدت العلاقة الدلالية بين العناصر اللغوية، فيقتضى الأمر مع ذلك الوصل، و تقل تلك العلاقة فيقتضى معها الفصل.

المصطلحان و الدلالة:

الوصل فى اللغة من: وَصَلَ يصِلُ، صلة، وصلتُ الشىء بالشىء وصلًا و صلةً، والوصل ضدُّ الهجران، و اتَّصل الشىء بالشىء: لم ينقطع، و الوصل خلاف الفصل. و جاء فى لسان العرب: و الفصل بونٌ ما بين شيئين، وهو من فَصَلَ، يفصِل: حجز بين شيئين، والفصل من الجسد موضع المفصل، وبين كلِّ فصلين وصل،والفاصل: الحاجزُ بين الشيئين،وفصل بينهما فصلًا فانفصل؛ وفصلت الشىء بالشىء فانفصل، أى: قطعتُه فانقطع. ([2])

<u>ثانيًا مصطلحا الوصل و الفصل فى الاصطلاح:</u>

يُشير مصطلحا الوصل والفصل إلى العلم بمواقع الجمل، والوقوف على ما ينبغى أن يُصنع فيها العطف والاستئناف، والتهدِّى إلى كيفية إيقاع أحرف العطف فى مواقعها، أو تركها عند عدم الحاجة إليها، وهو باب صعب المسلك؛ لا يوفَّق

([1])انظر: الفصل و الوصل فى القرآن الكريم: ١٩٣

([2])لسان العرب، لابن منظور، (د. ط) دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م: مادة (و، ص، ل). ومادة (ف، ص، ل).

للصواب فيه إلَّا من أوتى قسطًا وافرًا من البلاغة، وطبع على إدراك محاسنها، و رُزق حظًّا من معرفة ذوق الكلام؛ وذلك لغموض هذا الباب ودقة مسلكه وعظيم خطره وكثير فائدته.([1])

ويُعدُّ المصطلحان آلية من طرائق إتمام التواصل الدلالي، يعكس أبعادًا نفسية، و لغوية، و دلالية، و جمالية، و لا يعنى الفصل قطع العلائق بين التراكيب النحوية، فأحيانًا يحتاج المؤلِّف إلى مناطق محددة، يتوقف عندها ثم يواصل مسيرته الكلامية، ليربط بين معنى و معنى برابط ظاهر أو مقدَّر؛ أو أن يقطع معنى عن معنى بقاطع صوتى، أو لفظى كأن يقف عند نهاية معنى ما، ليستأنف كلامه بمعنى جديد، حتى لا يحدث تداخل أو تعارض أو تناقض بين المعنيين إذا وصلهما. ليُصبح بين ثلاثية متداخلة من سمو المعنى و جماله و بلاغته.

وقد نقل أبو هلال العسكري حديث بزرجمهر، وهو يقول: " إذا مدحت رجلًا وهجوت آخر، فاجعل بين القولين فصلًا؛ حتى تعرف المدح من الهجاء، كما تفعل فى كتبك؛ إذا استأنفت القول، وأكملت ما سلف من اللفظ ".([2]) و قد ذكر أبو هلال العسكرى أن أكثم بن صيفى كان إذا كاتَب ملكًا يقول: " افصلوا بين كلِّ منقضى معنى، و صلوا إذا كان الكلام معجونًا بعضه ببعض ". ([3]) ففى كلامه - هذا - دليلٌ على أنه يجب الفصل عند تناقض الكلام، أى: إذا أراد المخاطِبُ أن يتكلم بكلام غير الذى سبق؛ فعليه أن يستأنف ولا يعطف على السابق. ([4])

([1]) انظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانى،، تعليق: محمود محمد شاكر، ط٢، مكتبة الخانجي القاهرة، ١٩٨٩وط مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٠ م. وتصحيح: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ١٩٧٨م: ٢٥٤

([2])الصناعتين، لأبي هلال العسكرى، (د. ط) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨١م: ٤٩٩، وانظر: الإتقان فى علوم القرآن، للسيوطى، (د. ط)، دار إحياء التراث، (د. ت) ٣: ٣١٦، و دلائل الإعجاز: ٢٥٠

([3]) الصناعتين: ٤٩٩

([4]) انظر: عناصر السبك بين القدماء و المحدثين، د: نادية رمضان محمد النجار، كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية (العربية بين نحو الجملة ونحو النص)، محرم ١٤٢٦هـ، فبراير ٢٠٠٥م: ج٢: ٥٨٧

علاقة النحو بآلية الوصل و الفصل:

عدَّ بوجراند الربط النحوي المعيار الأول فى تحقيق التماسك النصى، و كان يعني به ربط مكونات النص السطحية؛ كما جعل التماسك الدلالي المعيار الثانى، و الذى قصد به الوظائف التى تتشكل من خلالها مكونات عالم النص؛ و هكذا فالأول ربطٌ بين علاقات لغوية، و الثاني ربط بين تصورات عالم النص. ([1]) ومن المفيد الإشارة إلى أنه ليس صحيحًا القول بأن البنيويين - وعلى رأسهم دى سوسير- هم أول من تنبَّه إلى فكرة العلاقات و دورها فى الربط بين عناصر النص الظاهرة، من حيث التشكيل و البناء ([2])، فقد سبق إلى ذلك أجدادنا القدماء، و ليس فى الأمر ثمة تعصب، انظر إلى صنيع الزمخشري تره قد استوعب فكرة الترابط بين كل متجاورين برؤية أوسع ممَّا ذكره المحدثون.

تعقد هذه الآلية علاقة نحوية و دلالية بين المفردات المركبات، و إذا كان تحققُ هذه الآلية ميسورًا على مستوى السطح؛ فإن رصدَ العلاقات الدلالية يحتاج إلى التعامل على المستوى العميق للصياغة. ([3]) لذا يُمثل الربط سواء الظاهر أو المقدَّر عنصرًا من عناصر التماسك بين مساحات النص ([4])، إذ يُشير إلى العلاقات بين التراكيب و المتواليات التركيبية، و يكون الربط بأدوات ملفوظة؛ كأدوات العطف و غيرها، أو بوسائل ملحوظة، و علاقات مفهومة ومنطقية. ([5])

والدليل على ذلك أن فى الوصل ارتباطًا للقوالب النحوية، وإشارةً إلى الشكل النموذجى للتركيب النحوي، فقد يستخدم الوصل بالفاء للإشارة إلى معطوف أو محذوف، ومما جاء موصولًا بالفاء، ممَّا ربطت الفاء فيه بين اللاحق

([1]) و قد جعل الدكتور حسن محمد نور المبارك معايير أخرى للربط و الترابط بين أجزاء النص، ذكر منها: القصدية، و المقبولية، و الإخبارية، و الموقفية، و التنامى. انظر: الربط و الروابط بين نحو الجملة و نحو النص، د: حسن محمد نور المبارك (مرجع سابق) ج٢: ٨٧٦

([2]) تشير الفقرة إلى نفي الباحث لكلام الدكتور محمد فتيح الذى يذهب إلى أن دى سوسير و تلاميذه هم أول من أدرك علاقات الترابط النصى، ارجع إلى كتاب الدكتور محمد فتيح: فى الفكر اللغوي، د: محمد فتيح، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م: ٦٤

([3])انظر: البلاغة العربية (قراءة أخرى) د: محمد عبد المطلب، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الجيزة، مصر، ١٩٩٧م: ٤٩٦

([4]) انظر: اتساق النص فى سورة الكهف، د: فريد حيدر، (د. ط)، زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٤م: ١٣٤

([5]) النص و الخطاب و الإجراء، روبرت دى بوجراند، ترجمة د: تمام حسان، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م: ٢٤٧

والسابق بعلاقة ما، هى فى الأصل علاقة نحوية، قوله – تعالي: " و إذ قال موسي لقومه يا قوم إنَّكم ظلمتُم أنفسَكم باتِّخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتُلوا أنفسكم ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنَّه هو التوَّابُ الرحيمُ ". ([1]) يقول الزمخشري: " فإن قلت: ما الفرق بين الفاءات؟. قلتُ: الأولي للتسبيب لا غير؛ لأن الظلم سبب التوبة، و الثانية للتعقيب؛ لأن المعنى: فاعزموا على التوبة؛ فاقتلوا أنفسكم من قِبَلِ أن الله – تعالي – جعل توبتهم قتلَ أنفسهم، و الثالثة متعلقة بمحذوف، و هذا المحذوف قد يكون شرطًا، و كأنه قيل: فإن فعلتم فقد تاب عليكم بارئكم ". ([2])

مصطلحا الوصل و الفصل بين عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) و الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)

عبد القاهر الجرجانى (تقعيد المصطلح):

تناول عبد القاهر الفصل و الوصل من زاوية تكامل المعنى، من خلال علاقات دلالية توجد بين جملتين؛ سابقة و أخرى لاحقة. ([3]) وعرَّف هذا الباب بأنه: " ما ينبغي أن يُصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها، و المجيء بها منثورة، تُستأنف واحدة منها بعد الأخرى، ويعد من أسرار البلاغة؛ ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا للأعراب الخُلصّ، أو لقوم طُبِعوا وجُبِلوا على الفصاحة والبلاغة، وأوتوا فنًا من المعرفة في ذوق الكلام، هم به أفراد ([4])

الزمخشري و المصطلح (مجاوزة التنظير إلى التطبيق):

لم يعقد الزمخشري بابًا خاصًّا لهذا الفن من الكلام؛ لكنه انطلق – معتمدًا على الإطار النظرى الذى وضعه عبد القاهر الجرجانى، إذ معلوم عن الرجل أنه استوعب عمل من سبقوه – يطبِّق رؤيته على مواضع الفصل و الوصل، فازدهرت – بصنيعه – دراستهما ؛ إذ أصبحت مادة ذا حياة و مصداقية، حين

([1]) سورة البقرة: ٥٤
([2]) الكشاف ١: ١٤٣، ٢: ٢٣٦، ٤: ٤٤٣
([3]) دلائل الإعجاز: ١٧٤
([4]) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٥٣

طبَّق على أى القرآن كلِّها، فقد أجاز الزمخشري الفصل و الوصل لا بين الجمل فحسب، و إنما بين المفردات أيضًا.

وقد أدرك الزمخشري صعوبة هذا المبحث و جماليته؛ لأنه يرتكز على إدراك العلاقات التركيبية بين الجمل، و كيف يربط المؤلف بين دلالة إحدى الجملتين، فيجعلها سببًا أو نتيجة لما تقدمها أو تأخَّر عنها من الجمل، إذ إن ترتيب الأفكار ونظم أجزائها؛ كنظم العقد يحتاج إلى ملكة مالكة ، وقدرة بارعة ، وذكاء لمّاح يُوجِد فيه انسجامًا، واتساقًا، وتعاقبًا، وترابطًا. (١)

مفهوم الوصل و الفصل عند الزمخشري:

أدرك الزمخشري أنه إذا كان الوصل حسنًا لتحقيق التناسب بين الجارتين، فإن الفصل يحسُن حال غياب المناسبة بينهما، حين استحسن الوصل إذا وقعت الجملة الثانية موقع التوكيد أو النعت أو البدلية أو الظرفية.. من الجملة الأولى، و حين استحسن الفصل إذا لم تتعلق الثانية بالأولى تعلقًا ذاتيًا. فإذا ارتبطتا صح نسق الكلام، و توافق مع القصد المطروح، و اشتد الامتزاج بينهما، و يكون ذلك الارتباط بأداة لفظية، و هى – غالبًا – أحرف العطف، أو من خلال تحقق التناسق الداخلى بينهما، أو ما أسماه الزمخشري: المقدَّر الخفى.

وقد اطمأن الزمخشري – فى تطبيقاته – إلى أن تلك الروابط تُزيد التعالق بين المتجاورتين؛ حتى إنه لا يتصور وجود دلالة حاسمة فى الجملة المفردة فى هذا الباب، بل المتصور تحديد معنى الأولى من خلال الثانية؛، و كأن الأولى تقرر الحدث، و تأتى الثانية لتضيف نسقًا دلاليًا جديدًا، يؤكِّد ثبوت المعنى الأول و تمكنه.

لذا فقد جعل الوصل: عطف بعض الجمل على بعض؛ و الفصل تركه؛ فإذا أتت جملة بعد جملة، فالأولي إمَّا أن يكون لها محل من الإعراب أو لا؛ و على الأول إن قُصد تشريك الثانية لها فى حكمه؛ عطفت عليها كالمفرد، فشرط كونه مقبولًا بالواو و نحوه أن يكون بينهما حجة جامعة، نحو: زيدٌ يكتبُ و يشعر، أو يُعطى و يمنع ؛ و إلَّا فُصلت عنها، نحو: " و إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنَّا

(١) ينظر: نحو المعانى: ٩٤

معكُم إنَّما نحن مستهزئون. الله يستهزئ بهم ". ([1]) لم يعطف قوله: " الله يستهزئ بهم ". على قوله: " إنَّا معكُم ". لئلَّا يُشاركه فى حكم المفعولية للقول، و هو ليس مما قالوا، و إن لم يكن لها محلٌ من الإعراب؛ فإن كان لها حكم لم يُقصد إعطاؤه للثانية وجب الفصل. ([2])

يروم الزمخشري من آلية الوصل و الفصل أن تُحقق إقناعًا أكثر من كونها سبيلًا لزخرفة التركيب النحوى، ذلك الإقناع القائم على مراعاة الإعجاب بالجمال، القائم على تمام الدلالة و فطنة القصد، بعيدًا عن الثبات و وحدة القالب.

و قد بدت رؤيته هذه فى تعريفه للفصل، حين يقول: " و الفصل: التمييز بين الشيئين، و قيل للكلام البين: فصلٌ. بمعني: المفصول، كضرب الأمير؛ لأنهم قالوا: كلامٌ ملتبسٌ، و فى كلامه لبسٌ، و الملتبس: المختلط. فقيل فى نقيضه: فصلٌ، أى: مفصولٌ بعضهُ من بعض، فمعنى (فصل) من قوله – تعالي: " (فصل الخطاب). ([3]) فصل الخطاب البين من الكلام الملخَّص، الذى يتبيَّنه من يُخاطَبُ به، لا يلتبس عليه، و من فصل الخطاب و ملخصه أن لا يُخطئ صاحبه مظان الفصل و الوصل، فلا يقف فى كلمة الشهادة على المستثنى منه، و لا يتلو قوله: " فويلٌ للمصلين ". ([4]) إلَّا موصولًا بما بعده، و لا (و الله يعلم و أنتم). حتى يصله بقوله: " لا تعلمون ".([5]) ونحو ذلك ([6])، و كذلك مظان العطف و تركه، و الإضمار و الإظهار، و الحذف و التكرار؛ و إن شئت كان الفصل بمعنى الفاصل، كالصوم و الزور، و أردت بفصل الخطاب: الفاصل من الخطاب، الذى يفصل بين الصحيح و الفاسد، و الحقِّ و الباطل، و الصواب و الخطأ. ([7])

([1])سورة البقرة: ١٤ ـ ١٥

([2])انظر: الكشاف ١: ٧٧ و ما بعدها

([3])سورة ص: ٢٠

([4])سورة الماعون: ٤

([5])سورة البقرة: ٢٣٢

([6]) و لا يتلو قول أبى تمام:

– لهان علينا أن نقولَ و نفعلا و نذكر بعضَ الفضل منك تفضُّلا

ففى قوله – هذا – نلحظ أنه كلَّما أُدمجت الكلمات قوى شبهُها بالمفرد، أى بالكلمة الواحدة، و كأن العطف قد أظهر قوة للنص و إحكامًا له، فعندئذٍ أصبحت معاطف الكلام أسلس، و لعل المأخذ اللطيف فيها هو هذا التضاد بين المعطوفات، فالممدوح يفعل حين يقول الناس، و يصنع الفضل حين يذكره الآخرون ذكرًا.

انظر: ديوان أبى تمام ٣: ٩٨، و انظر: دلالات التراكيب (دراسة بلاغية) د: محمد محمد أبو موسى، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م: ٢٨٦

([7])انظر: الكشاف ٤: ٧٥ ـ ٧٦

بل إن الزمخشري يتجاوز ذلك إلى الحديث عمَّا أسماه المحدثون عتبات النص، وأن الرابط بين عناصر النص هو حُسن الانتقال بين عناصره من التراكيب النحوية، فجعل المتكلم البليغ هو من يُحسن الانتقال، من دون إخلال للدلالة، ولا طعن فى جمالية التصاعد الدلالي، حين ذكر أن معنى الفصل و الوصل أولًا حسن الافتتاح، و الفصل بين الحقِّ و الباطل؛ فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق إليه؛ فصل بينه و بين ذكر الله بقوله: أمَّا بعدُ، و ضابطه فى ذلك الوصول إلى القصد بخطاب ليس فيه اختصارٌ مُخلٌّ و لا إشباعٌ مُمِلٌّ. ([1])

ويبدو أن التماثل أو الاختلاف لهما أثر حاسم فى تحقيق تمام الدلالة فى التراكيب، فمن المعلوم أن ارتباط أطراف الجمل (الفعلية و الاسمية)، أو ارتباط الجملتين السابقة و اللاحقة دلاليًا؛ يبرز توازيًا جماليًا، يحسه المتلقى و يتفاعل معه؛ لما يؤديه من دور فى إتمام عملية التوصيل للقصد، بصورة جميلة و مقبولة.([2])

فالتماثل والتوازي لم يتحقق بين جمل الفصل لطبيعة الجملة الثانية؛ فهي عادة ما تكون أطول من الجملة الأولى، لما في الثانية من تفسير وبيان وتوكيد أو إجابة أو غير ذلك، لهذا استعاض أسلوب الفصل بميزات جمالية أخرى؛ استطاع من خلالها تشكيل وحدة نفسية متكاملة، قادرة على تبليغ الرسالة في وسط مفعم بالانسجام؛ لاعتماد هذا اللون التعبيري على التكرار والإعادة، والقوة والجزالة والفخامة؛ التي لا تضاهيها قوة لشدة التماسك والترابط، بل للوحدة القائمة بين الجمل.([3])

و ينتج عن حُسْن التصرف فى آلية الوصل و الفصل بعدٌ جماليٌّ، عزَّ أن نراه فى غيره من التراكيب النحوية؛ و هذا البعد الجمالي الناجم عن وصل التراكيب و فصلها مرهون بدخول تلك الآلية دائرة الاحتمالات التعبيرية؛ على معنى صلاحية البنيتين للتدخل فى تشكيل المستوى السطحيِّ، أو لنقُلْ: أن تكون الدفقةُ التعبيرية صالحةً للفصل و الوصل، ثم يأتى السياق ليُرجِّح حالة على أُخرى؛ إذ لو كان الفصل أو الوصل واجبًا - من حيث اللغة – لانتفت الاحتمالية،

([1])انظر: الكشاف ٤: ٧٦

([2])الفصل والوصل فى القرآن الكريم، د: منير سلطان، (د. ط) دار المعارف، بيروت، ١٩٨٣م: ٧٨

([3])انظر: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) ٣٩.انظر: الكشاف ١: ١٨٧- ١٨٨

و اهتزَّت عملية الاختيار، التى تنصبُّ على هذا أو ذاك، و من هنا تدخل الصياغة منطقة غير المألوف. ([1])

و قد عرض الزمخشري قضية الوصل و الفصل بين التراكيب على محاور، هى:

ثالثًا: كمال الاتِّصال:

و تكون الجمل أو التراكيب - فى هذا النمط – متلاحمة، فتكون الثانية – غالبًا – أشد ارتباطًا بالأولي، لكن الجملة الثانية لا يُرجى منها أن تتصل بالأولي، و تمتزج بها فحسب، بل يُرجى منها أن تأخذ بالمعانى نحو آفاقٍ جديدة، يستقر فيها معنى الجملة الأولي؛ بانتهاء الجملة الثانية؛ لشدة تماسك الجملتين. ([2]) و ينتج كمال الاتصال بين التركيبين فى حالتين، هما:

<u>الحالة الأولى</u>: أن يكون بين الجملتين كمال الانقطاع، و لكن بناء الصياغة – على هذا الأصل – يُقدِّم ناتجًا فاسدًا أو غيرَ مقصودٍ، و من هنا وجب الوصل.

<u>الحالة الثانية</u>: و هى: أن تتفق الجملتان فى الخبرية أو الإنشائية؛ مع وجود العلاقة الجامعة بينهما،

و قد جاء على هذا البناء قولُه – تعالي: " و إذ استسقى موسي لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرةَ عينًا قد علم كلُّ أُناسٍ مشربهم كُلُوا و اشربوا من رزق الله و لا تعثوا فى الأرض مفسدين ". ([3]) وكذلك جاء على هذا البناء قولُه – تعالي: " يُخادعون الله و هو خادعهم ". ([4]) فبين الجملتين اتِّحادٌ فى المسند، و هو قوله: (يُخادعون) (خادعُهم)؛ فالمخادعة موجودة فى الجملتين، مع اتفاقهما فى الخبرية، بل إن العلاقة الجامعة تتحول من المماثلة فى بنية السطح، و هى المخادعة؛ إلى نوعٍ من الضدية فى بنية العمق، لأن المخادعة تستلزم العداوة بين الطرفين؛ ممَّا أوجب الوصل. ([5])

([1])انظر: البلاغة العربية (قراءة أخرى)، د: محمد عبد المطلب، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الجيزة، مصر، ١٩٩٧م: ٣٠٨

([2]) انظر: الإشارات و التنبيهات فى علم البلاغة، محمد بن على الجرجاني، تحقيق د: عبد القادر حسن، ط١، دار مصر للطباعة، القاهرة، (د. ت): ١٢١

([3])سورة البقرة: ٦٠

([4])سورة النساء: ١٤٢

([5])انظر: البلاغة العربية (قراءة أخرى) (مرجع سابق): ٣٢١

و تلك الحالة لا يجوز الفصل فيها؛ لأن ما قبلها يكون بمنزلة الصفة من الموصوف، و التأكيد من المؤكد، فلا يصح فيها الفصل؛ لشدة ما بين الجملتين من اتصال. ([1]) فقد أوجب الوصلَ بين التركيبين فى عدة مواضع، منها:

١- <u>إذا قُصد التشريك بينهما فى الحكم الإعرابى ([2]):</u>

ويتحقق ذلك حين يرتبط التركيب الثاني بالأول ارتباطًا نحويًّا دلاليًّا، بأن يكون من لازم معناه؛ و صحَّ – بوجه قويٍّ فى العربية – أن تشترك عناصره، نحويًّا، مع عناصر التركيب الأول؛ فصار ما بعد العاطف الظاهر مشتركًا مع ما قبله، و يحسُن – فى ذلك – أن يتفق التركيبان فى الاسمية أو الفعلية، كما صحَّ أن تتطابق الجملتان الفعليتان فى نوع الفعل، ماضيًا كان أو مضارعًا.

وقد جاء على هذا البناء قولُه – تعالي: " إذ قال يوسف لأبيه يا أَبَتِ إنِّى رأيت أحدَ عشَر كوكبًا والشمسَ والقمرَ رأيتهم لى ساجدين ". ([3])

فقد قرَّر الزمخشري أن كلمتى (الشمس و القمر) قد أُخرتا لِيُعْطفا على الكواكب، على طريق التخصيص؛ بيانًا لفضلهما، و استبدادًا بالمزية على غيرها من الطوالع.. و قد وجب الوصل لاشتراك المعطوفين فى أمر الرؤيا، وأنهما تلابسا فى أمر السجود، وهذا كثيرٌ شائعٌ فى كلامهم: أن يُلابس الشىء الشىءَ من بعض الوجوه؛ فيُعطى حكمًا من أحكامه؛ إظهارًا لأمر الملابسة والمقاربة.([4])

ومن ذلك أيضًا إنكار الزمخشري لقراءة ابن مسعود، فى قوله – تعالي: " تساءلون به والأرحامِ ". بكسر الميم من كلمة (الأرحام).([5]) فقد قرأها حمزة([6])، حمزة([6])، ابن مسعود: (و بالأرحام) بتكرير العامل، و هو – هنا حرف الجر؛ من باب العطف جرًّا للظاهر على المضمر، وهى عنده ليست بسديدة؛ لأن

([1])الكشاف ٣: ١٩٧

([2]) كما فى قوله – تعالي: " إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانُهم شُرَّعًا.. إلى قوله – تعالي: إذ قالت أُمَّة منهم.. ". سورة الأعراف: ١٦٣ – ١٦٤ فيرى الزمخشري أن جملة (إذ يعدون) فى محل خبر بدل من القرية، و(إذ تأتيهم) منصوب بـ (يعدون)؛ أما (إذ قالت) فمعطوف على إذ يعدون ، وحكمه حكمه فى الإعراب. انظر: الكشاف ٢: ٧٥

([3]) سورة يوسف – عليه السلام: ٤

([4]) انظر: الكشاف ٢: ٣٠١ – ٣٠٢، و انظره فى: ٣: ٤٣٦

([5])سورة النساء: ١

([6]) ذكر ابن مالك أن قراءة الجر للمين من كلمة (الأرحام)، هى قراءة حمزة، و الحسن، و ابن رزين، و مجاهد، و قتادة، و الأعمش، و النخعى، و يحيى بن وثاب، انظر: شرح التسهيل ٣: ٢٣٣

الضمير المتصل متصل كاسمه، و الجار و المجرور كشيء واحد، فكانا فى قولك: مررت به و بزيد. و هذا غلامه و زيد شديدي الاتصال، فلما اشتد الاتصال لتكرره، أشبه العطف على بعض الكلمة؛ فلم يجز، ووجب تكرير العامل، كقولك: مررت به و بزيد. و هذا غلامه و غلامُ زيد. ألا ترى إلى صحة قولك: رأيتك و زيدًا و مررت بزيدٍ و عمرو. لما لم يقو الاتصال؛ و قد تُمحل لقراءة ابن مسعود؛ بأنها على تقدير تكرير الجار، و نظيرها: {من بحر البسيط }

فاليوم قد بتَّ تهجونا و تشتمنا فاذهب فما بك و الأيام من عجب ([1])

و الزمخشري - فى رأيه هذا - ينتصر لقراءة الجمهور، التي تُجيز إعمال الجار على التقدير مع حذفه؛ لأن العامل و المعمول – فى هذا الموضع – مما اتصلا و ترابطا؛ فصارا كالشيء الواحد، فليس هناك دافع إلى تكرير العامل، و هو حرف الجر فى هذا الموضع، و لذا قوى الوصل بين العامل و المعمول؛ على تقدير: يسأل بعضكم بعضًا بالله و بالرحم. ([2])

٢- أن يتفق التركيبان خبرًا أو إنشاءً، بشروط:

- **أن تجمع بينهما مناسبة تامة صوتية، أو دلالية، أو لنكتة بلاغية، أو بعد جمالي.**
- **ألَّا يوجد بينهما سبب يقتضى الفصل بينهما.**

(أ) – وصل الخبر بالخبر:

كما فى قوله – تعالي: " الذى خلقك فسوَّاك فعدلك. فى أى صورةٍ ما شاء ركَّبك ". ([3]) يُلاحظ ما الصورة البصرية و الدلالية للآيات السالفة الذكر أنها – جميعًا – تحمل خبرًا فى اللفظ و المعنى، لذا لم تحتجْ إلى رابط ظاهر، كالواو أو الفاء؛ و قد أوجب الزمخشري وصل التركيب الأول: " الذى خلقك فسوَّاك فعدلك ". بالثانى: " فى أى صورةٍ ما شاء ركَّبك ". لأن الثانى قد جاء بيانًا للأول؛ ويتعلق – وقتئذٍ – الجار بـ (ركبك) على معنى: وضعك فى بعض الصور، ومكَّنك فيها، على تقدير محذوف، أى: ركبك حاصلًا فى بعض الصور، و محله

([1]) والبيت لعمرو بن معديكرب، والشاهد فى هذا البيت جواز العطف على تقدير تكرير الجار مع حذفه، فعطف الأيام على الضمير فى (بك) من دون إعادة الجار، أى: فما بك و بالأيام. و قد جوَّزه سيبويه فى الشعر، والبيت فى رواية الكتاب: فاليوم قرَّبتَ. انظر: الكتاب، ٢: ٣٨٣. و انظر: شرح التسهيل ٣: ٣٣٤، و همع الهوامع، ٢: ١٣٩

([2])الكشاف ١: ٤٢٠

([3]) سورة الانفطار: ٧ – ٨

النصب على الحال؛ إن عُلِّق بمحذوف، و يجوز أن يتعلق بـ (عدلك) و يكون فى أى معنى التعجب، أى: فعدلك فى صورة عجيبة. ([1])

(ب) – وصل الإنشاء بالإنشاء:

كما فى قوله – تعالي: " فمهِّلِ الكافرين أمْهلْهُم رويدًا ". ([2]) نلاحظ أن التركيب الأول جاء إنشاءً، و هو قوله: (فمهِّل)؛ إذ جاء على صورة الأمر، و كذلك التركيب الثانى، و هو قوله: (أمهلْهُم). فكان فى الثانى زيادة فى المعنى تبعًا لزيادة المبنى؛ فقد زِيد مورفيم سابقة همزة السلب، فى الفعل (مهِّلْ) لزيادة معنى، و يكون معنى الأول: لا تدعُ بهلاكهم، و لا تستعجل به، و يكون معنى الثانى: أى: أمهلهم إمهالًا يسيرًا، وقد كرَّر و خالف بين اللفظين لزيادة التسكين منه و التصبير، و كأن الثانى قد أكَّد الأول، و لا يجوز الفصل بين المؤكَّد و مؤكِّده. ([3])

٣- إذا اختلف التركيبان خبرًا و إنشاءً و أوقع الفصل فى خلاف المقصود:

فى هذه الحالة يكون تُرك العاطف بين التركيبين موهمًا خلاف المقصود، لذا وجب الوصل لدفع الإبهام، فالواقع أن الأصل- فيما اختلفت فيه التراكيب أو الجمل خبرًا و إنشاءً - الفصلُ بينها، إلّا أنه قد وردت تراكيب قرآنية عُطف فيها الخبر على الإنشاء، أو العكس، و قد أجاز الزمخشري عطف المختلف اعتمادًا على أمرين، هما:

- اشتمال المقام على ما يُزيل التباين الدلالي.
- قرينة التضمين، بمعنى: تضمين الخبر معنى الإنشاء، أو تضمين الإنشاء معنى الخبر

و من أمثلة الأول:

- وصل الخبر بالنهي:

و قد جاء على هذا البناء قوله – تعالي: " و إذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلَّا الله و بالوالدين إحسانًا و ذى القُرْبى و اليتامى و المساكين و قولُوا للناس حُسْنًا و أقيموا الصلاة و ءاتوا الزَّكاة ثم توليتم إلَّا قليلًا منكم و أنتم

([1]) انظر: الكشاف ٤: ٦١١
([2]) سورة الطارق: ١٧
([3]) انظر: الكشاف ٤: ٦٣٠

مُعرضون ". (١) و لا يخفى على ذى لُبٍّ أن قوله – تعالي: " لا تعبدون ". إخبارٌ فى معنى النهى، أى: متضمن معنى: " لا تعبدوا ". كما تقول: " تذهب إلى فلانٍ تقول له كذا؛ تريد الأمرَ، و هو أبلغ من صريح الأمر و النهى؛ لأنه كأنْ سُورع إلى الامتثال و الانتهاء، فهو يُخبر عنه، و تنصره قراءةُ عبد الله و أبىٍّ: " لا تعبدوا ". و لابد من إرادة القول، و يدل عليه – أيضًا – قوله: " و قولوا ". و قوله: " و بالوالدين إحسانًا ". بتقدير: و تحسنون بالوالدين إحسانًا". (٢)

و قد جاء على هذا البناء قولُه – تعالي: " و لا تأكلوا ممَّا لمْ يُذكر اسمُ الله عليه و إنه لفسقٌ و إن الشياطين ليُوحون إلى أوليائهم ليُجادلوكم و إن أطعتموهم إنَّكم لمشركون ". (٣) فقد وصل الإنشاء (و لا تأكلوا) بالخبر (و إنه لفسقٌ). برابط ظاهر، و هو الواو العاطفة، و حجته فى ذلك أمران، الأول: تأول الضمير المنصوب بالإنشاء، و الثاني: السياق؛ إذ السياق سياق نهى، و لذا صدَّر به الخطاب القرآني الآية الكريمة، و كأن الهاء أدت عملًا دلاليًّا، و آخر رابطًا، أى: لا تأكلوا، و إن الأكل لفسق، فساغ لذلك وصل الإنشاء بالخبر، أو أصبحا الطرفان إنشاءً؛ لدخولهما تحت مظلة النهى، و فى هذا الصدد يقول الزمخشري: " (و إنه لفسق) الضمير راجعٌ إلى مصدر الفعل الذى دخل عليه حرف النهى، يعنى: و إن الأكل منه لفسقٌ، أو يعود الضمير إلى الموصول على: و إن أكله لفسقٌ؛ أو جُعل ما لم يُذكر اسم الله عليه – فى نفسه – فسقًا ". (٤)

- وصل الخبر بالاستفهام:

على الرغم من أنه يكاد البلاغيون يجمعون على عدم وصل الجملة الخبرية بالاستفهام - لأن الاستفهام لا يحتاج للتوكيد، لما فيه من مفاجأة للمتلقى و إدهاش له، و لأن وصل الخبر بالإنشاء أو العكس يفقد الكلام توازيه، و هو شرط الوصل عند البلاغيين - (٥) فقد أجاز الزمخشرى وصل جملة الاستفهام (جملة إنشائية) بالجملة الخبرية؛ فى قوله تعالى: " يسألونك عن الأهلة، قل هى

(١)سورة البقرة: ٨٣
(٢)انظر: الكشاف ١: ١٦٠
(٣)سورة الأنعام: ١٢١
(٤)انظر: الكشاف ١: ٦٥٤ – ٦٥٥، ٣: ٢٣١
(٥) انظر: فلسفة الفن: ٧٦، و مبادئ النقد الأدبى: ١٩٢، و دلائل الإعجاز: ٢٣٢

مواقيت للناس و الحج، و ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها، و لكن البر من اتقى، وأتوا البيوت من أبوابها، و اتقوا الله لعلكم تفلحون ".([1])

و جواز الوصل فى الآية السابقة مرده؛ للتعنيت عليهم، لأنهم أهل للتعنت، و فى هذا السياق يقول: " (و لكن البر) بر (من اتقى) ما حرَّم الله، فإن قلت: ما وجه اتصاله بما قبله؟، قلت: كأنه قيل لهم، عند سؤالهم عن الأهلة، و عن الحكمة فى نقصانها و تمامها: معلوم أن كل ما يفعله الله – عزَّ و جلَّ – لا يكون إلا حكمة بالغة و مصلحة لعباده، فدعوا السؤال عنه، وانظروا إلى واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البرِّ فى شىء، وأنتم تحسبونها برًّا.

و عنده أن جواز ذلك؛ على سبيل الاستطراد، لما ذكر أنها مواقيت للحج؛ لأنه كان من أفعالهم فى الحج، و يُحتمل أن يكون هذا تمثيلًا لتعكيسهم فى سؤالهم، وأن مثلهم فيه؛ كمثل من يترك باب البيت، و يدخله من ظهره، و المعنى: ليس البر، و ما ينبغى أن تكونوا عليه بأن تعكسوا فى مسائلكم، و لكن البر من اتقى ذلك و تجنبه.. ([2]) و المراد: وجوب توطين النفوس، و ربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة و صواب؛ من غير اختلاج شبهة.([3])

و من أمثلة الثاني:

- **<u>: الوصل للتضمين:</u>**

تجدر الإشارة إلى أنه يجب وصل الخبر الصريح بما فى معنى الخبر (وصل الخبر بالإنشاء لفظًا، و هو فى معنى الخبر) على سبيل التضمين، و تلك آلية استثمرها الزمخشري كثيرًا فى كشافه، إذ فيها حملٌ على المعنى، من دون التقيِّد بظاهر الألفاظ، كما فى قوله – تعالي: " قال إنِّى أُشهد الله و اشهدوا أنِّى برىء مما تُشركون ". ([4]) و التقدير على الظاهر: إنى أشهدُ و اشهدوا. فيكون التركيب الأول خبريًّا و الثانى إنشائيًّا، لمجيئه على الأمر، و لكنه إنشائىٌّ لفظًا خبرىٌّ معنى.

([1])سورة البقرة: ١٨٩
([2]) البلاغة العربية (قراءة أخرى): ٣١٧
([3]) الكشاف ١: ٢٢٦ - ٢٢٧
([4]) سورة هود – عليه السلام: ٥٤

و تقوم رؤية الزمخشري على تضمين الإنشاء معنى الخبر أو العكس، فالتقدير: الله شهيد على أنى لا أفعل كذا، و يقول لقومه: كونوا شهداء على أنى لا أفعله، و على ذلك اختلف التركيبان خبرًا و إنشاءً فى اللفظ لا فى المعنى، و تحقق شرطا وجوب الوصل، و هما:

- وجود الصلة الدلالية بين المعطوفين.
- غياب السبب المُقتضى للفصل.

و قد أوجب الوصل حملًا على المعنى، و أن فعل الأمر قد ضُمِّن معنى الخبرية، فصار التركيبان خبريين، يقول: " فإن قلت: هلا قيل: إنى أشهد الله و أشهدكُم؟. قلتُ: لأن إشهاد الله – تعالي – على البراءة من الشرك إشهاد صحيح فى معنى التوحيد و شدِّ معاقده، و أما إشهادهم فما هو إلَّا تهاونٌ بدينهم، و دلالة على قلة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، و جىء به على لفظ الأمر بالشهادة؛ كما يقول الرجل – لمن يبس الثرى بينه و بينه: اشهد على أنى أحبُّك. تهكمًا به و استهانة بحاله. (١)

٤- إذا كانت المتواليات التركيبية تحمل معنى واحدًا، و تُشير إلى قصدية واحدة.

و هنا تُصبح المتواليات جميعُها كتلة دلالية واحدة، تترابط بعلاقة التضام، و يُخرجها المؤلف فى مساحة زمنية واحدة، حتى تصل تفاصيل القصد إلى المتلقى؛ فيحيط بها و يستوعبها، و يتفاعل معها. كما فى قوله – تعالي: " ما عليك من حسابهم من شىءٍ و ما من حسابك عليهم من شىءٍ فتطردهم ". (٢) إذ يُقرر الزمخشري أن التركيب الثانى (و ما من حسابك عليهم من شىءٍ) قد ضُمَّ إلى الأول (ما عليك من حسابهم من شىءٍ). و هو ذاته فى المعنى؛ لأن الجملتين صارتا بمنزلة جملة واحدة، و قُصد بها مؤدًى واحدٌ، و هو المعنى فى قوله: " و لا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى ". (٣)

فلا يستقل بهذا المعنى إلَّا الجملتان جميعًا؛ كأنه قيل: لا تُؤاخَذَ أنت و لا هم بحساب صاحبه، و قيل: الضمير للمشركين؛ و المعنى: لا يؤاخذون بحسابك و لا أنت بحسابهم حتى يهمك إيمانُهم.. فتطردهم. فتطردهم، جواب النفى، (فتكون من

(١) الكشاف ٢: ٢٦٩
(٢) سورة الأنعام: ٥٢
(٣) سورة الإسراء: ١٥

الظالمين) جواب النهى، و يجوز أن يكون عطفًا على (فتطردهم) على وجه التسبيب؛ لأن كونه ظالمًا مسبب عن طردهم. ([1])

و قد عُنى الزمخشري بذلك أيَّما عناية، انظر إليه فى معرض تعليقه على قوله – تعالي: " و الذين لا يدعون مع الله إلهًا ءاخر ولا يقتلون النفس التى حرَّم الله إلَّا بالحقِّ ولا يزنون ومَنْ يفعلْ ذلك يلقَ أثامًا. ([2]) يُضاعف له العذابُ يوم القيامة ويخلُدْ فيه مُهانًا.. ". ([3]) يقول الزمخشري: " (يُضاعف) بدل من (يلقَ) لأنهما فى معنى واحد، كقوله: { من بحر الطويل }

متى تأتنا تُلَمْلِمْ بنا فى دارنا تجدْ حطبًا جزلًا و نارًا تأجَّجًا. ([4])

والذى حسَّن الفصل هو ارتباط التركيبين (يلقَ أثامًا) و(يُضاعف له العذاب) بعلاقة تفصيل المجمل، فقد جاء التركيب الثانى مفصِّلًا لصنوف الآثام، و قبُح الفصل لاختلال الدلالة، فيكف يكون الاستئناف عن مجهول؟، و من هو الذى يُضاعف له العذاب؟، و لم استحقه؟. فقد حَسُنَ الوصلُ لأمور، منها:

١- كون التركيب الثانى تفصيلًا للأول.

٢- عود الرابط (ضمير هاء الغيبة المفرد المذكر) فى التركيب الثانى على اسم ظاهر فى التركيب الأول.

٣- حقق الوصل تمام الدلالة و سلامتها.

٥- إذا كان فى الفصل بين التراكيب النحوية منافاة لمذهبه الاعتزالي:

وانتصارًا لمذهبه الاعتزالي فقد أوجب الزمخشري أن يتصل قوله – تعالي: " ولكن انظر إلى الجبل ". ([5]) بقوله – تعالي: " لن تراني ". إذ من المحال – عنده – رؤية العبد لربه، و لزوم الوصل – هنا - حتى لا يلتبس المعني، و ذلك على سبيل الاستدراك؛ لأنه لو أجاز الفصل؛ لانفصلت العلاقة بين حجية استحالة الرؤية؛ فكان الوصل – هنا – تعليل لمذهبه الاعتزالي.

([1]) الكشاف ١: ٦٢٩

([2])سورة الفرقان: ٦٨

([3])سورة الفرقان: ٦٩

([4]) البيت من بحر الطويل، وهو للحطيئة، أوعُبيد الله الحر (جرول بن أوس) يمدح به قيس بن شماس، وتعشو: تأتى الظلام ترجو عنده الخير، خير نار: أى: نارًا مُعدة للضيف الطارق. و قد سأل سيبويه الخليل عن البيت السابق، فقال: (تُلملمْ) بدل من الفعل الأول، و نظيره من الأسماء: مررتُ برجلٍ عبدِ الله؛ فأراد أن يُفسِّر الإتيان بالإلمام، كما فسَّر الاسم الأول بالاسم الآخر. انظر:ديوان الحطيئة: ٢٥، وانظر: الكتاب ٣: ٨٦، والكشاف ٣: ٢٦٠

([5]) سورة الأعراف: ١٤٣

وفى هذا السياق يقول: " فإن قلت: كيف اتِّصل الاستدراك فى قوله: " و لكن انظر إلى الجبل ". بما قبله؟ قلت: اتصل به على معنى أن النظر إلىَّ محال، فلا تطلبه، و لكن عليك بنظر آخر، و هو أن تنظر إلى الجبل الذى يرجف بك، وبمن طلبت الرؤية لأجلهم، كيف أفعل به، و كيف أجعله دكًّا بسبب طلبك الرؤية؛ لتستعظم ما أقدمت عليه، بما أُريك من عظم أثره، و كأنه – عز و علا – حقق – عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد إليه؛ فى قوله – تعالي: " و تخر الجبال هدًّا أن دعوا للرحمن ولدًا ".(١) وفى هذا الوصل وصلٌ لجملة الخبر بجملة الإنشاء، ولعل الإنشاء إخبار فى معني الأمر، فى قوله – تعالي: " لكن انظر إلى الجبل ". على سبيل التمثيل.(٢)

٦- إذا كان فى الاتِّصال سببٌ فى جمالية التركيب النحوي:

حرص الزمخشري على أن يصل القصد كاملًا إلى المتلقى، من خلال معونات لفظية، أو معنوية، أو سياقية، مراعاة لأفق انتظاره، أو صدمة له؛ و أن المؤلف فى جمله و اتصالها أو انفصالها يراعى حسن التخلص (عتبات النص)، لذا قد يكون الانفصال سببًا فى انقطاع الدلالة، أو مؤديًّا لسوء الفهم، أو جالبًا لمعنى مغاير؛ لذا أوجب الزمخشري الوصل فى قوله – تعالي: " لا تُحرك به لسانك لتعجل به ". (٣) إلى آخره بذكر القيامة. يقول: قلت: اتصاله به من جهة هذا التخلص منه إلى التوبيخ بحب العاجلة، و ترك الاهتمام بالآخرة ".(٤)

- إذا كان بين التركيبين ربطٌ معنويٌّ:

وظَّف الزمخشرى الالتفات توظيفًا دقيقًا، مشيرًا إلى أثره فى تحقيق التماسك النصى، على مستوى الجمل، أو المتتاليات الجملية. ومثال ذلك قوله – تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾. (٥)، وقوله: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابن السَّبِيلِ﴾. (٦)

(١)سورة مريم: ٩٠ - ٩١
(٢) الكشاف ٢: ٦٣،و انظره: ١: ٦٥
(٣)سورة القيامة: ١٦
(٤) الكشاف ٤: ٥٦٥
(٥) سورة البقرة: ٢١٤
(٦) سورة البقرة: ٢١٥

فقد أدى الالتفات دورًا حاسمًا فى تحقيق الترابط بين الآيتين السابقتين؛ فبيَّن - تعالى - حال الأمم السابقة، مع كونهم أمة واحدة، من اختلافهم على أنبيائهم، و كيف أن الله - تعالى - رفقًا بهم أمدهم بالبينات، فهدى الله أقوامًا منهم.ثم يستأنف الخطاب القرآني - على سبيل التقرير - أنهم لا يتوقعون توجيه الخطاب لهم، فتبدأ الآية بالتفات ذهنى وجدانى عقدى واقعى، ينشط أذهان المخاطبين، و يحثهم على المتابعة و التأمل.

و فى هذا السياق يقول الزمخشرى: " (أم) منقطعة، و معنى الهمزة فيها للتقرير و إنكار الحسبان و استبعاده، و لما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين؛ بعد مجىء البينات؛ تشجيعًا لرسول الله – صلى الله عليه و سلم – و المؤمنين على الثبات والصبر، مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب، وإنكارهم لآياته، و عدواتهم له. قال على طريقة الالتفات، التي هى أبلغ: (أم حسبتم)، و (لما) فيها معنى التوقع، و هى فى النفى نظيرة (قد) فى الإثبات، و المعنى أن إتيان ذلك متوقع منتظر.([1])

٦- التوسع فى الربط بين التراكيب:

أحيانًا يكون الرابط بين التركيبين رابط عاطف ظاهر، و أحيانًا أخرى يكون مقدَّرًا، و هو مصدر اللذة و الجمال. و قد جاء على هذا البناء قوله – تعالي: " و من يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله و رسوله ثم يُدركه الموت فقد وقع أجره على الله ". ([2]) فيقرر الزمخشري أن الحكم بثبوت الأجر فى الآخرة أو حقيقة وجوب الأجر يتعلق بحدوث الهجرة و تحقق الموت، و لم يتعلق الجزاء على أمر واحد منهما؛ بل على تحققهما معًا؛ فكأن الجملتين جملة واحدة، و كلا منهما بمنزلة الجزء من الكلمة الواحدة. ([3]) لذا وجب اتصال الجملتين.

([1]) الكشاف ١: ٢٤٥
([2]) سورة النساء: ١٠٠
([3]) الكشاف ١: ٤٩٦

٧- إذا تعلق أول الكلام بآخره:

كما فى قوله – تعالي: " الذين يُقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و هم بالآخرة هم يوقنون ". (١) يقول: فإن قلتَ: (و هم بالآخرة هم يوقنون). كيف يتَّصل بما قبله؟.قلتُ: يُحتمل أن يكون من جملة صلة الموصول، و يُحتمل أن تتم الصلة عنده، و يكون جملة اعتراضية؛ كأنه قيل: و هؤلاء الذين يؤمنون، ويعملون الصالحات؛ من إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة، و هو الوجه، و يدلُّ عليه أنه عقد جملة ابتدائية و كرَّر فيها المبتدأ، الذى هو (هم) حتَّى صار معناها: و ما يوقن بالآخرة حقَّ الإيقان إلَّا هؤلاء الجامعون بين الإيمان و العمل الصالح، لأن خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق. (٢)

رابعًا: الإبـــداع الدلالي للوصـل:

تجدر الإشارة إلى أن الوصل يعتمد على الربط النحوي بادئ الأمر (ثوابت النحو) التى هى نظام من القواعد و المقولات و الحدود، التى تختص بنظام لغة ما، بل إنه يستحيل فهم المعانى أو إدراك القصود المرادة من دون وجود لهذا الترابط النحوي بين عناصر التراكيب، و بين كل تركيب و ما يُجاوره من تراكيب ارتبطت به بعلاقة ما (٣) إذ يكون الوصل أتمَّ للدلالة و أنسب للسياق،

و قد استثمر الخطاب القرآنى ذلك الأمر، و جاء التكرير اللفظى سبيلًا لذلك، فيورد معنى من المعاني، ثم يلتفت طويلًا، ثم يعود ليكرر ذلك المعنى، مع اختلاف ظاهرى، يهدف إلى إحداث تناسق بين المعانى المختلفة.و قد جاء على هذا البناء قوله – تعالي: " و لكل أمة جعلنا منسكًا ". (٤) بواو عاطفة قبل (لكل)، ثم يتناول موضوعات أخر، تستمر ثلاثين آية، ثم يعود فيذكر الآية ذاتها: " " لكل أمة جعلنا منسكًا ". (٥) و لكن من دون الرابط العاطف، و من يتأمل كلام الزمخشري يجده حريصًا على التناسق الداخلى بين الآيات، و إن طال الاعتراض؛ ذلك التناسق الذى يروم تمام المعنى.يقول: " فإن قلت: لم جاءت

---

(١)سورة النمل: ٣
(٢)الكشاف ٣: ٣٠٧
(٣) انظر: علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات) تون. أ. فان دايك، ترجمة د: سعيد حسن بحيري، ط١، دار القاهرة للنشر و التوزيع، القاهرة، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٢م: ٣٩
(٤)سورة الحج: ٣٤
(٥)سورة الحج: ٦٧

نظيرةُ هذه الآية معطوفة بالواو و قد نُزعت عن هذه؟. قلتُ: لأن تلك – إشارة إلى الآية رقم ٣٤ من سورة الحج – وقعت مع ما يدانيها و يناسبها من الآي الواردة فى أمر النسائك، فعطفت على أخواتها، و أما هذه – إشارة إلى الآية رقم ٦٧ من سورة الحج – فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفًا. (١)

و تتحقق فى الوصل قاعدة زيادة المعنى لزيادة المبنى، و أن تلك الزيادة تُتُم الدلالة، و أن حذفها يفوِّت الغرض من ذلك، جاء فى الكشاف - فى قوله – تعالي: " الذين يُنفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يُتبعون ما أنفقوا منًّا و لا أذًى لهم أجرُهم عند ربِّهم و لا خوفٌ عليهم و لا هُم يحزنون ". (٢) – أن حُسن الفصل – فى هذا الموضع – لأن الموصول لم يُضمَّن معنى الشرط، في حين ضُمِّن معنى الشرط فى قوله – تعالي: " " الذين يُنفقون بالَّيْل و النهار سرًّا و علانيةً يُتبعون فلهم أجرُهم عند ربِّهم و لا خوفٌ عليهم و لا هُم يحزنون ". (٣) لذا جاء قوله – تعالي: " لهم أجرهم ". موصولًا بالفاء مرَّة، و مفصولًا من دون الفاء مرة أخرى.

يقول الزمخشري: " فإن قلت: أىُّ فرقٍ بين قوله: (لهم أجرهم) و قوله – فيما بعد: (فلهم أجرُهم)؟. قلتُ: الموصول لم يُضمَّن – ها هنا – معنى الشرط و ضمِّنه ثمة، و الفرق بينهما من جهة المعنى: أن الفاء فيها دلالة على أن الإنفاق به أُستُحقَّ الأجر، و طرحها عارٍ عن تلك الدلالة. (٤)

و ينظر الزمخشري إلى التكرير، بوصفه وسيلة من وسائل الاتِّصال بين التراكيب النحوية؛ فقد ترتبط التراكيب، و إن سقطت أدوات الربط، فيبدو استقلالُ كلِّ تركيب عن الآخر، فقد ارتبطت التراكيب النحوية، رغم سقوط الفاء، و جاء ارتباطها بتناسق الدلالة، مع غياب الروابط الشكلية، كما فى قوله – تعالي: " الرحمن. عَلَّم القرآنَ. خلَقَ الإنسانَ. علَّمَهُ البيانَ. الشمسُ و القمرُ بحُسبان. و النجم و الشَّجر يسجدان. (٥)

---

(١) الكشاف ٣: ١٥٠ – ١٥١
(٢) سورة البقرة: ٢٦٢
(٣) سورة البقرة: ٢٧٤
(٤) الكشاف ١: ٢٩١
(٥) سورة الرحمن: ١ – ٦

يقول الزمخشري: " (الرحمن) مبتدأ، و هذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة؛ و إخلاؤها من العاطف، لمجيئها على نمط التعديد، كما تقول: زيدٌ أغناك بعد فقرٍ، أعزَّك بعد ذُلٍّ. كثَّرك بعد قِلَّةٍ. فعل بك ما لم يفعلْ أحدٌ بأحدٍ، فما تُنكرُ من إحسانه؟. (١) ثم يقول: فإن قلت: كيف اتصلت الجملتان بالرحمن؟. قلتُ: اُستغنى فيهما عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي، لمَّا عُلم أن الحُسبانَ حسبانُه، و السجود له لا غير، كأنه قيل: الشمس و القمر بحسبانه، و النجم و الشَّجرُ يسجدان له؛ فإن قيل: كيف أخلَّ بالعاطف فى الجمل الأُوَل ثم جِىءَ به بعد؟.

قلتُ: بكَّت بتلك الجمل الأُوَل ورادةً على سنن التعديد؛ ليكون كلٌّ واحدة من الجمل مستقلَّةً فى تقريع الذين أنكروا الرحمن و آلاءه، كما يُبكت منكر آيادى المنعم عليه من الناس؛ بتعديدها عليه فى المثال الذى قدمته، ثم ردَّ الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت، فى وصل ما يجب وصلُه للتناسب و التقارب بالعاطف، فإن قلتَ: أىُّ تناسبٍ بين هاتين الجملتين حتَّى وسَّط بينهما العاطف؟. قلتُ: إن الشمس و القمر سماويان، و النَّجم و الشَّجرُ أرضيان؛ فبين القبيلتين تناسبٌ من حيث التقابل، و إن السماء و الأرض لا تزالان تُذكران قرينتين، و إن جرْىَ الشمس و القمر من جنس الانقياد لأمر الله، فهو مناسبٌ لسجود النجم و الشجر.(٢)

و قد يتحقق الاتصال بين التراكيب بحسن ترتيبها اللفظىِّ و الدلالي، و لا تحتاج التراكيب النحوية الواردة على سبيل البيان إلى روابط لفظية، لأنها تمثل كتلة دلالية واحدة، تتصاعد دلالتها بتزايد التراكيب، فهى كالجسد الواحد، فإذا ما دخلها رابط فصل عرى ترابطها، و غدا غريبًا عن ذلك الكيان الحى الواحد.

و هذا ما أشار إليه الزمخشري فى تناوله لآية الكرسى(٣) بالتفسير، فقال: " فإن قلتَ: كيف ترتبت الجملُ –فى آية الكرسى– من غير حرف عطف؟. قلتُ: ما منها جملةٌ إلَّا و هى واردةٌ على سبيل البيان لما تُرتِّبتْ عليه، و البيان متَّحدٌ بالمبيَّن؛ فلو توسط بينهما عاطفٌ لكان كما تقول العصا: بين العصا و لحائها،

(١)الكشَّاف ٤: ٣٨٠
(٢)الكشَّاف ٤: ٣٨٠
(٣)إشارة إلى الآية رقم ٢٥٣ من سورة البقرة

فالأولي بيانٌ لقيامه بتدبير الخلق، و كونه مهيمنًا عليه غير ساهٍ عنه، و الثانية لكونه مالكًا لما يدبِّره، و الثالثة لكبرياء شأنه، و الرابعة لإحاطته بأحوال الخلق، و علمه بالمرتضى منهم، المستوجب للشفاعة، و غير المرتضى، و الخامسة لسعه علمه و تعلُّقه بالمعلومات كلِّها، أو لجلاله و عظيم قدره. (١)

لذا لا يتم الفهم أو يكمل إلَّا حين يقف السامع على كل الدلالة، التى يحرص المؤلف على أن تصل إلى بؤرةَ الشعور لدى متلقيه، لأنه الهدف الأساسى فى كلِّ كلام، و ليست العملية العضوية التى نقوم بها فى النطق بالأصوات أو الألفاظ أو التراكيب إلَّا وسائل يرجو المتكلم أن يصل عن طريقها إلى ما يهدف من فهم و إفهام. (٢)

و قد جاء فى الكشاف فى قوله – تعالي: " و إذ قال موسي لقومه اذكرُوا نعمةَ الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعونَ يسومونكم سوء العذاب و يُذبِّحون أبناءكُم و يستحْيُون نساءكم و فى ذلكم بلاءٌ من ربِّكُم عظيمٌ ". (٣) و فى قوله – تعالي: " و إذ نجيناكُم من ءال فرعونَ يسومونكم سوء العذاب يُذبِّحون أبناءكُم و يستحْيُون نساءكم و فى ذلكم بلاءٌ من ربِّكُم عظيمٌ ". (٤)

و يُفسِّر الفراء ذلك بقوله: " فمعنى الواو أنه يمسهم غير التذبيح، كأنه قيل: يعذبونكم بغير الذبح و بالذبح؛ و معنى طرح الواو كأنه طرح لصفات العذاب، و إذا كان الخبر من العذاب أو الثواب مجملًا فى كلمة ثن فسرته؛ فاجعله بغير الواو، و إذا كان أوله غير آخره فبالواو. (٥)

وقد أشار الزمخشري إلى أن فى ترك العاطف - فى قوله: (يذبِّحون) فى آية إبراهيم – عليه السلام و إثباته فى آية البقرة – زيادةً فى المعنى، و لذا حسن الوصل، و علل لذلك بأن فى ترك الوصل (العاطف) بيانًا و تفسيرًا، أما فى إثباته (استحسان الوصل) فقد زاد المعنى و تأكَّد زيادة ظاهرة.

---

(١)الكشَّاف ١: ٢٨٤

(٢)انظر: صندوق الدنيا للمازني، دراسة نظرية تطبيقية فى الأسلوب و التناص، د: محمد عبد العال، كتاب المؤتمر الثالث للعربية و الدراسات النحوية، العربية بين نحو الجملة و نحو النص، كلية دار العلوم، القاهرة، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥ م ج٢: ٧١٣

(٣)سورة إبراهيم – عليه السلام: ٦

(٤)سورة البقرة: ٤٩

(٥)معانى القرآن: ٢: ٦٨-+

يقول: فإن قلت: فى سورة البقرة (يُذَبِّحون)، و فى الأعراف (يُقتِّلون)، و ها هنا (و يُذَبِّحون) مع الواو، فما الفرق؟. قلتُ: الفرق أن التذبيح، حيث طرح الواو، جُعِل تفسيرًا للعذاب و بيانًا له؛ و لذلك تُرك العاطف، و حيث أُثبت جُعِل التذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب، و زاد عليه زيادة ظاهرة، كأنه جنسٌ أخر، و لذلك أثبت العاطف، و حَسُن الوصل. (١)

و قد استثمر الزمخشري آلية الوصل فى تأكيد تلك القاعدة، التى مفادها قيامُ الدلالة على اندماج التراكيب، بأن تتضافر عناصرها فى الدلالة على معنى ما، وهذا المعنى يتجاوز الحدود الدلالية لتركيب واحد، و كأن التركيبين نسيج واحد متكامل، من ناحية الألفاظ و المعانى، فيمزج الوصل بين سطح التراكيب و عمقها، فيكون التركيب الأول ممهِّدًا دلاليًّا، و يأتىالثانى ليحقق تمام الدلالة، و هكذا، و يضيِّق الاحتمالات الدلالية المتشعبة، التى تختلط فى ذاكرة التلقى

من ذلك قول الزمخشري، فى قوله – تعالي: " إنَّ ربَّكم اللهُ الذى خلق السماوات و الأرض فى ستة أيَّام ثم استوى على العرش يُدبِّر الأمر ما من شفيع إلَّا من بعد إذنه ذالكم اللهُ ربُّكم فاعبدوه أفلا يتذكَّرون ". (٢) فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟. (٣) قلت: قد دلَّ بالجملة قبلها على عظمة شأنه و ملطه بخلق السماوات و الأرض مع بسطتها و اتساعها فى وقت يسير، و بالاستواء على العرش، و أتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة، و أنه لا يخرج أمرٌ من الأمور من فضائه و تقديره. (٤)

- **<u>يحقق الوصل تعالق التراكيب النحوية:</u>**

أدرك الزمخشري القاعدة التواصلية التى تحتفى بتوطيد العلاقة بين المؤلف و المتلقى، بوصفهما شريكين فى إنتاج التراكيب و صياغتها و تحليلها. فتتصل التراكيب (تترابط) برابطين ظاهرين؛ تقوية للعلاقة بينها، و على اعتماد

(١)انظر: الكشاف ٢: ٣٨٤، ١: ١٤٠
(٢)سورة يونس – عليه السلام: ٥
(٣)إشارة إلى قوله – تعالي: " يُدبِّرُ الأمر ". من نفس الآية، سورة يونس – عليه السلام: ٥
(٤)الكشاف ٢: ٢٠٧ - ٢٠٨

كلٍّ منها على الآخر فى إيضاح الدلالة و تمامها، ([1]) لذا فقد جعل الزمخشري الفعل (انظروا) مسببًا عن السير، فاستحسن الوصل.

ويعلق على قوله – تعالي: " قل سيروا فى الأرض ثُمَّ انظُروا كيف كان عاقبةُ المكذِّبين ". ([2]) فى مفارقة مع قوله – تعالي: " قد خلت من قبلكُم سننٌ فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبةُ المكذبين ". ([3]) يقول: فإن قلت: أىُّ فرقٍ بين قوله: (فانظروا). و بين قوله: (ثمَّ انظروا)؟. قلتُ: جعل النظر مسبَّبًا عن السير، فى قوله: (فانظروا) فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، و لا تسيروا سير الغافلين، و أما قوله: " سيروا فى الأرض ثُمَّ انظُروا ". فمعناه: إباحة السير فى الأرض للتجارة و غيرها، من المنافع، و إيجاب النظر فى آثار الهالكين؛ و نبَّه على ذلك بـ (ثُمَّ) لتباعد ما بين الواجب و المباح. ([4])

و يُحقق الوصل ربطًا قويًّا بين الأحداث التى تعرضها التراكيب النحوية المتتالية، إضافة إلى الإفادة الجزئية التى تحملها التراكيب حال استقلالها عن غيرها، ليمنح المؤلِّف امتدادًا دلاليًّا، يستثمر فيه طاقات الإقناع و الإمتاع، فيصوغ قصده على هيئة حلقات دلالية، يربط الوصل بينها ، يمنح المتلقى حالة من الإشباع و الاقتناع.

و قد أدرك الزمخشري ذلك البعد الدلالي، الذى يستكشف - بوصل أركان القصد و مُعيناته - أبعاد العلاقة بين البنيتين السطحية و العميقة، و أن البنية السطحية الجزئية هى نواة صغرى فى نسيج البنية العميقة ([5])، التى تتكامل دلالاتها بارتباط التراكيب، و تكثيف شحناتها الدلالية. ([6])

([1]) انظر: علم لغة النص (المفاهيم و الاتجاهات) د: سعيد حسن بحيري، ط١، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع، القاهرة، ٢٠٠٤م: ٩٦ و ما بعدها (بتصرف)

([2])سورة الأنعام: ١١

([3])سورو آل عمران: ١٣٧

([4])انظر: الكشاف ١: ٣٧٨، ١: ٦١٤

([5]) انظر: الربط و الروابط بين نحو الجملة و نحو النص، د: حسن محمد نور المبارك، كتاب المؤتمر الثالث للعربية و الدراسات النحوية (العربية بين نحو الجملة إلى نحو النص) كلية دار العلوم، القاهرة، محرم ١٤٢٦هـ / فبراير ٢٠٠٥م ج٢: ٨٤٨

([6]) انظر: صندوق الدنيا للمازني، (دراسة نظرية تطبيقية فى الأسلوب و التناص) د: محمد عبد العال، كتاب المؤتمر الثالث للعربية و الدراسات النحوية (العربية بين نحو الجملة و نحو النص) كلية دار العلوم، القاهرة، محرم ١٤٢٦هـ / فبراير ٢٠٠٥م: ج٢: ٦٩٢

و قد جاء على ذلك قوله – تعالي: " و من الناس من يقولُ ءامنَّا بالله و باليوم الآخر و ما هم بمؤمنين ". (١) إلى قوله – تعالي: " يكاد البرقُ يخطف أبصارهم". (٢) فقد عطف قصة المنافقين، على قصة الذين كفروا، من قوله – تعالي: " إن الذين كفروا سواءٌ عليهم ءأنذرتهم أم لم تُنذرْهم لا يؤمنون ". (٣) إلى قوله – تعالي: " ختم اللهُ على سمعهم و على أبصارهم غشاوةٌ و لهم عذابٌ عظيمٌ".(٤)

فقد أشار الزمخشري إلى أن الوصل قد أدَّى دورًا حاسمًا فى إتمام الدلالة، فعطف المنافقين على الكفار، لأن القصد أن الكفر يجمع بينهما معًا، و صيَّرهم جنسًا واحدًا، و كون المنافقين نوعًا من نوعي هذا الجنس مغايرًا للنوع الآخر بزيادة زادوها على الكفر الجامع بينهما، من الخديعة و الاستهزاء لا يُخرجهم من أن يكونوا بعضًا من الجنس، فصيَّر الوصل القصتين قصة واحدة و طويلة، لها طرفان، قد جمع الوصل بينهما. (٥)

- **<u>يكون فى الوصل حكاية للبعد النفسي:</u>**

و قد يكون الوصل عرضًا لحكاية ما، و لاسيما فى كشف غوامض النفس لدى المتلقى، أو عرض مطلب نفسي لديه، أو لبيان ما يحرص المتلقى على إخفائه، فيأتى الوصل؛ ليعرض صورة القصد كلية، فتتمكن فى نفسه المتلهفة، و يُصبح أقدر على إدراك تفاصيلها، و تجلية قصدية المؤلف. كما فى قوله – تعالي: " لتجدنَّهم أحرصَ الناس على حياة و من الذين أشركوا يودُّ أحدهم لو يُعمَّر ألف سنةٍ و ما هو بمزحزحه عن العذاب أن يُعمَّر.. ". (٦)

فقد استحسن الزمخشري وصل قوله – تعالي: " يودُّ أحدهم ". (٧) بقوله – تعالي: " لتجدنَّهم "؛ إذ جاء الثانى بيانًا لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف،

---

(١)سورة البقرة: ٨
(٢)سورة البقرة: ٢٠
(٣)سورة البقرة: ٦
(٤)سورة البقرة: ٧
(٥)انظر: الكشاف ١: ٦٧ و ما بعدها (بتصرف).
(٦) سورة البقرة: ٩٦
(٧) سورة البقرة: ٩٦

كما استحسن وصل " لو يُعمَّر " بـ: " يودُّ " لأن فى ذلك حكاية لودادتهم، و لو فى معنى التمنى ". ([1])

خامسًا: التوسط بين الكماليـن على سبيل الاستحسان:

و التوسط معناه: أن يتساوى الأمران الفصل و الوصل، اعتمادًا على تمام الدلالة، و الإحاطة بالقصد، و يَحْسُن أحدهما لوجه أو لنكتة، و يقوِّى الوصل أو الفصل " ألَّا تكون عناصره إجراءات هدفها – فحسب - الوصول إلى أذهان المخاطبين بأى وسيلة؛ بل لابد من مراعاة الانسجام التام بين شكل الخطاب و مضامينه الفكرية و الاجتماعية من جهة، و الأساليب و العلاقات الموحية بعفوية الطرح و براءته من جهة ثانية.([2]) و قد عرض الزمخشري صورًا لهذا التوسط، نذكر منها:

١- <u>أن يكون التركيبان متناسبين؛ لكنَّ مانعًا يمنع من العطف (عدم التشريك فى الحكم):</u>

مثل قوله – تعالي: " و إذا خلوْا إلى شياطينهم قالوا إنَّا معكم إنَّما نحن مستهزئون اللهُ يستهزئ بهم.. ". ([3]) يُشير الزمخشري إلى أن جملة (الله يستهزئ بهم). لا يصح عطفها على (إنَّا معكم)؛ لاقتضائه أنها من مقول المنافقين، و لا على جملة (قالوا) لأن استهزاء الله؛ بأن خذلهم و خلَّاهم، و ما سولت لهم أنفسهم، مستدرِجًا إيَّاهم من حيثُ لا يشعرون؛ إنما هو على نفس الاستهزاء و فعلهم له، و إرادتهم إيَّاه فى قولهم: آمنا. لا على أنهم حدثوا عن أنفسهم بأنهم مستهزئون؛ إذ المؤاخذة على اعتقاد الاستهزاء و الخديعة فى إظهار الإيمان، لا فى قولهم: إنَّا استهزأنا، من غير أن يقترن بذلك القول اعتقادٌ و نيَّةٌ. ([4])

و قد جعله الزمخشري مظهرًا من مظاهر صحة الكلام، و دليل تفوق مبدعه، و قدرته على إفهام متلقيه، و قد استشهد الزمخشري على ذلك النمط

([1]) انظر: الكشاف ١: ١٦٧ - ١٦٨

([2])مفهوم الحجاج عند بيرلمان و تطوره فى البلاغة المعاصرة، م عالم الفكر، م ٢٨، ع ٣: ٧٤- ٧٥

([3]) سورة البقرة: ١٤

([4]) انظر: الكشاف ١: ٧٦ - ٧٨

بعطف قوله – تعالي: " و بشِّر المؤمنين ". و هو إنشاء على قوله – تعالي: " و أخرى تحبونها نصرٌ من الله و فتح قريبٌ ". (١) فذهب إلى أنها معطوفة على قوله – تعالي: " تؤمنون ". قبلها، لأنها فى معنى الأمر، و التقدير: آمنوا، و قد اعتمد الزمخشري - فى رأيه هذا - على تضمين الخبر معنى الإنشاء و العكس، استنادًا على السياق الدال.

فجعل الخبر (تؤمنون) فى معنى الإنشاء (آمنوا)، فهو خبرٌ فى معنى الأمر، و لهذا أُجيب بقوله: " يغفر لكم ". اعتمادًا على أن سياق الآية سياق إنشاء، حيث تبدأ الآيات بإنشاء، هو قوله – تعالى: " يا أيُّها ". و هو إنشاء نداء، ثم تردف بإنشاء آخر، هو قوله – تعالي: " هل أدلكم ". و هو إنشاء استفهام، و الخبر (تؤمنون) جواب لاستفهام مقدر، و هو قول المؤمنين: و ما التجارة؟. فيقال: آمنوا، و حسن الحمل – هنا – لتحقيق التناسب الدلالي بين التراكيب. فيصبح التقدير: آمنوا بالله و رسوله، و جاهدوا يُثْبكم الله و ينصرْكم. (٢)

أما المجيء بالإنشاء على لفظ الخبر فله غاية، و هى إلزامهم الإيمان و الامتثال، فإن قلت: لم جيء به على لفظ الخبر؟. قلتُ: للإيذان بوجوب الامتثال، و كأنه امتُثِل؛ فهو يُخبر عن إيمان و جهادٍ موجودين، و نظيره قول الداعي: غفر الله لك، يغفر الله لك، جعلت المغفرة – لقوة الرجاء – كأنها كانت ووجدت.(٣)

٢- <u>أن يتعلق الأمر بالبعد النفسي للمتلقى:</u>

و يحسُنُ وصلُ الإنشاء بالخبر لإبراز البعد النفسي للمتلقين، الذين يتشوفون إلى مُبهم يتساءلون عنه، و هو أدوات التجارة التى ينجون بها من عذاب الله، فلما وصل وافق الوصل اعتقادهم، و ما يرومون من الإيمان و الإخلاص؛ لأنهم باحثون عن نتيجة أعمالهم مستبشرين بها، و يورد الزمخشري أنهم قالوا: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه، فمكثوا ما شاء الله، يقولون: ليتنا نعلم ما هى؟.

---

(١)سورة الصف: ١٣
(٢)الكشاف ٤: ٤٤٨
(٣)الكشاف ٤: ٤٤٧

فدلَّهم الله عليها بقوله: (تؤمنون) ([1]). و هذا دليلٌ على أن تؤمنون كلامٌ مستأنفٌ، و على أن الأمر الوارد على النفوس؛ بعد تشوُّفٍ و تطلعٍ منها إليه أوقعُ فيها و أقرب من قبولها له مما فوجئت به.([2])

٣- أن يجمع بين المتجاورين مناسبة دلالية:

ليس الهدف من الوصل أو الفصل تحقيق التشابه بين التركيبين، بقدر ما هو التزام بالامتداد الدلالي، من دون تعارض و لا تناقض، فقد حسَّن وصل قوله – تعالي: " و بشِّر الذين آمنوا و عملوا الصالحات أنَّ لهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار.. ". ([3]) و هو جملة إنشاء؛ على قوله – تعالي: " فإن لم تفعلوا و لن تفعلوا فاتَّقوا النارَ التى وقودها الناسُ و الحجارةُ أُعدَّت للكافرين ". ([4]) فقد حمل للوصل - فى هذا الموضع - بعدًا دلاليًّا، و هو ذكر صفات المتقين، و عرض جملة من ثواب المؤمنين، يقول: " فإن قلت: علام عُطف هذا الأمر، و لم يسبق أمرٌ و لا نهىٌ يصح عطفه عليه؟.

قلتُ ([5]): ليس الذى اعتمد بالعطف هو الأمر، حتى يُطلب له مُشاكل من أمر أو نهى يُعطف عليه؛ إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين، فهى معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين، كما تقول: زيدٌ يُعاقَب بالقيد و الإرهاق، و بشِّر عمرًا بالعفو و الإطلاق، و لك أن تقول: هى معطوفةٌ على قوله: (فاتقوا). كما تقول: يا بنى تميم احذروا عقوبة ما جنيتم، و بشِّر يا فلان بنى أسدٍ بإحسانى إليهم. ([6])

٤ - أن تتحقق الاستقامة الدلالية مع عدم وجود ما يقتضى الوصل أو الفصل:

لعل من الإبداع الدلالي لآلية الفصل و الوصل عند الزمخشري، وحرصه على استقامة الدلالة، عطف الإنشاء على الخبر أو عطف الخبر على الإنشاء، فى

([1]) سورة الصف: ١٢
([2])الكشاف ٤: ٤٤٨
([3])سورة البقرة: ٢٥
([4])سورة البقرة: ٢٤
([5]) الكشاف ٣: ٤٣٦
([6])الكشاف ١: ١١١

سياق دلالى مقبول، حتى و إن فصل بين المتصلين فاصل دلالي طويل، على سبيل الاعتراض، و من ذلك إشارة الزمخشري إلى أن قوله – تعالي: " قُلْ من كان فى الضلالة فليمْدُدْ له الرحمن مدًّا حتَّى إذا رأوْا ما يُوعدون إمَّا العذابَ و إمَّا الساعة فسيعلمون من هو شرٌّ مكانًا و أضعفُ جندًا ". (١) يجوز فيها أن تكون متَّصلة بالآية التى هى رابعتها، و هى خبرية، و هى قوله – تعالي: " ثم ننجى الذين اتَّقوا و نذرُ الظالمين فيها جِثِيًّا ". (٢)

كما يجوز فيها أن تكون متصلة بما يليها، و هى قوله – تعالي: " و يزيدُ الله الذين اهتدوا هدًى و الباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربِّك ثوابًا و خيرٌ مرَدًّا".(٣) و يكون ما بينهما اعتراضًا. فإذا اتصلت بما قبلها كان المعنى: قالوا: أىُّ الفريقين خيرٌ مقامًا و أحسن نديًّا؟ فلن يبرحوا حتى يشاهدوا الموعود رأى العين؛ أما إذا كانت متصلة بما يليها، يكون المعنى: أن الذين فى الضلالة ممدودٌ لهم فى ضلالتهم، لا ينفكون عنها إلى أن يعاينوا نصرة الله للمؤمنين، أو يشاهدوا الساعة و مقدماتها.(٤)

٥- **<u>إذا كان التركيب الثانى من باب التكرير اللفظى أو المعنوي:</u>**

فقد جاء قوله – تعالي: " صراطَ الذين أنعمت عليهم ". (٥) تفسيرًا لقوله – تعالي: " اهدنا الصراطَ المستقيمَ ". (٦) و هو – عند الزمخشرى - فى حكم تكرير العامل؛ كأنه قيل: اهدنا الصراط المستقيم و اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم، و كأن التركيب الثانى جاء بدلًا من التركيب الأول.

يقول: " فإن قلت: ما فائدة قيل: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم؟. قلتُ: فائدته التوكيد لما فيه من التثنية و التكرير، و الإشعار بأن الطريق المستقيم بيانه و تفسيره صراط المسلمين؛ ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على

---

(١)سورة مريم: ٧٥
(٢)سورة مريم: ٧٢
(٣)سورة مريم: ٧٦
(٤)و قد يكون (يزيد) معطوفًا على موضع (فليمدد) لأنه واقعٌ موقع الخبر، تقديره: من كان فى الضلالة مُدَّ أو يُمِدُّ له الرحمن، و يزيد، أى: يزيد فى ضلال الضال بخذلانه. انظر: الكشاف ٣: ٣٥ - ٣٦
(٥) سورة الفاتحة: ٧
(٦) سورة الفاتحة: ٦

أبلغ وجه و آكده، كما تقول: هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل، لأنك تُثبت ذكره مجملًا أولًا، ثم مفصلًا ثانيًا، و قد أوقعت (فلان) تفسيرًا و إيضاحًا للأكرم الأفضل، فجعلته علمًا فى الكرم و الفضل، فكأنك قلت: من أراد رجلًا جامعًا للخصلتين فعليه بفلان، فهو الشخص المعيَّن لاجتماعهما فيه غير مُدافَع و لا منازَعٍ ". ([1])

٦- <u>عندما يتعلق التركيب الثانى بسؤال مقدَّر و هذا السؤال مرتبطٌ بالتركيب الأول:</u>

يتأتى ذلك عندما يترابط التركيبان ترابطًا قويًّا، و لكن الثانى منهما متعلقٌ بسؤال مقدر، كما فى قوله – تعالي: " و ما أبرئ نفسى إنَّ النفس لأمَّارةٌ بالسوء ". ([2]) و قد توسط الأمر بين التركيبين؛ لأن فى الأول خصوصًا للذات، و قد تُرك الوصل لإرادة عموم الأحوال، فى قوله: " إنَّ النفس لأمَّارةٌ بالسوء ". أراد الجنس أى: إن هذا الجنس يأمر بالشهوات ". ([3])

فصحَّ أن يكون كل تركيب كلامًا برأسه، و أن يكون الثانى استئنافًا مفصولًا عمَّا قبله، إذا قصد نفى الحدث، و إثبات الجنس أو أن يحمل التركيبان كتلة دلالية واحدة، بنفى الحدث عن نفسه و إقراره بالخبر الثانى، و كأن المؤلف يعقد حوارًا داخليًّا، و يعرض لسؤال هو: ما السبب فى عدم حصول نفس على برائتها؟. فجاء التركيب الثاني جوابًا يُثبت الخبر لكل أفراد جنس النفس

سادسًا: كمال الانفصال: (لزوم الفصل):

يعد الفصل مانعًا بلاغيًّا لا نحويًّا، لا يَعنى – بحال – قطع العلائق بين الأساليب والتراكيب، بل إن الفصل من وسائل التعبير، التى يوظفها المؤلف، ليعبِّر بها عمَّا يشاء، من مكنونات فؤاده، فيستثمر الفصل ما دام فيه إبانة عن تمام مقصده، بعيدًا عن تداخل المعانى، بل استثمار تدفقها وفق ضوابط السياق.

إذ يضمن النظام الضابط للغتنا العربية التلازم بين العناصر اللغوية، حتى تؤدِّى ما يُراد لها من دلالة؛ بطريقة تضمن المحافظة على القيمة الدلالية

([1]) الكشاف ١: ٣٤
([2]) سورة يوسف – عليه السلام: ٥٣
([3]) الكشاف ٢: ٣٣٢

للمتجاورات بعيدة عن اللبس، و ألَّا يتعارض هذا التصرف مع القواعد النحوية للتراكيب. لذا يُقرر النحويون أن الفصل يزداد قبحًا و تمجُّه الأذهان كلما قوى الترابط بين التراكيب، كما يقول ابن جنِّى: " وعلى الجملة كلما ازداد الجزآن اتِّصالًا قوى قبح الفصل بينهما ". ([1]) بقى أن يُعرض لبعض حالات الوجوب، والتى منها:

- **<u>الحالة الأولى: أن تختلف الجملتان خبرًا و إنشاءً؛ لفظًا و معنًى،أو معنًى و لفظًا:</u>**

بحيث لا تكون بينهما مقاربة فى المعنى؛ إذ لا يصح الربط بينهما، لأنه لا ربط بين جملتين فى شدة التباعد و كمال الانقطاع ([2])، و يبدو أن هذا سبب شكلىٌّ للفصل؛ فقد تعبِّر إحدى الجملتين عن حدث وقع ماضيًا أو يقع حالًا فله نسبة خارجية، و الجملة الثانية إنشائية لم يقع مدلولها بعد، فليس لها نسبة خارجية، و هذا معنى قولهم: كمال الانقطاع، و لا يعنى الأمر قطع المناسبة بين المتجاورين؛ إذ لابد منه ليلتئم الكلام التئامًا يكون حسنًا.

كما فى قوله – تعالي: " و أقسطوا إن الله يُحب المقسطين ". ([3]) فيري الزمخشري أن التركيبين (أقسطوا) و (إن الله يحب المقسطين) قد اختلفتا فى الدلالة؛ فيُشير الأول إلى عموم العدل، و هو من الفعل (أقسّط) و هو بمعنى العدل، و همزته للسلب، أى: أزال القَسْط، أى: الجور. فى حين يُشير التركيب الثاني إلى الإخبار بوقوع محبة الله – تعالي – للموصوفين بالقِسْط، أى: بالعدل. فجاء الأول أمرًا للعموم، و لو وصل لتناقضت الدلالة بين الأمر و الخبر، و يُعضد ذلك مجىء الثاني بيانًا لماهية الإيمان، و لهذا حسُن الفصل، و تُرك العاطف.([4])

وهنا لا يكون المقصود من الفصل مجرد قطع التناسب بين المتجاورين، بقدر ما هو لسر آخر؛ بلاغي أو جمالي أو صوتي أو دلالي، يُشير إليه نسق

---

١. الخصائص، لابن جنى، تحقيق د: محمد على النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، ع ١٤٦، (د. ت). ٢: ٣٩٢

([2]) انظر: جواهر البلاغة فى المعانى و البيان و البديع، أحمد الهاشمى: ١٦٤

([3]) سورة الحجرات: ٩

([4]) الكشاف ٤: ٣١٦

التراكيب و هيئتها، كشبه كمال الاتصال أو كمال الاتصال بالتأكيد مثلًا، أو لتداعى المعانى ([1])

- **الحالة الثانية: إذا كان فى الوصل فسادٌ فى المعنى:**

نحو قوله – تعالي: " و لا يحزنْك قولُهم إنَّ العزَّة لله جميعًا و أن اللهَ هو السميع العليم ". ([2]) فيقرر الزمخشري أن الفصل - هنا – واجب؛ إذ الوصل يُوهم خلاف المقصود من الآية، فيكون (إنَّ العزَّة لله جميعًا) من مقول الكفار؛ فنهى الله نبيه – صلى الله عليه و سلم – عن أن يُحزنه قول الكفار هذا، و هذا القول لا يُحزن النبى – صلى الله عليه و سلم – إن قاله الكفار، و لهذا يجب الوقف (الفصل) على (قولهم)، ثم الاستئناف بـ: (إنَّ العزَّة لله جميعًا). ([3])

معنى ذلك أن الزمخشري يلج فى أعماق التركيب، ليُخرج أدق ما فيه، بدا ذلك حين وجَّه قراءة زيد بن علىّ، فى قوله – تعالي: " قل إن الموت الذى تفرُّون منه فإنه ملاقيكُم ". ([4]) فقد قرأ زيد بن على بحذف الفاء من (فإنَّه)، فيذكر الزمخشري إلى أن حذف الواو قد أخلَّ بالترابط بين التركيبين المتجاورين المترابطين، فجاء كلَّ تركيب كلامًا مستقلًا برأسه، يقول: " و قد جُعل إن الموت الذى تفرُّون منه كلامًا برأسه فى قراءة زيد؛ أي: إنَّ الموت هو الشيء الذى تفرُّون منه، ثم استؤنِف: إنه ملاقيكُم. ([5])

سابعًا: الإبـــداع الدلالي للفصـــل:

من الجيد الإشارة إلى أنه من دواعى الفصل عند السكاكى" أن يكون الكلام السابق غير وافٍ بتمام المراد؛ فيعيده المتكلم بنظم أولى منه،على نيَّة استئناف القصد إلى المراد؛ كقول الشاعر: (من بحر الطويل).

([1])انظر: فى البلاغة القرآنية (اسرار الفصل و الوصل)، د: صبَّاح عبيد دراز، ط١،مطبعة الأمانة، شبرا، مصر، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م: ٧٦

([2]) سورة يونس – عليه السلام: ٦٥

([3]) الكشاف ٣: ٥١١٠

([4])سورة الجمعة: ٨

([5])الكشاف ٤: ٤٥٢

أقول له: ارحل لا تُقِيمنَّ عندنا وإلَّا فكنْ فى السِّر و الجهر مسلمًا. ([1])

حيث فصل الشاعر بين ارحل، ولا تقيمنَّ؛ لأن النهى صار كأنه بدل من قوله: ارحل. وإنما أعاد قوله: لا تقيمنَّ. لتوقعه أن صيغة الأمر الأولى؛لا تؤدِّى مراده، و لا تبيِّن قصده، فأعاد المعنى ذاته.([2]) وقد عرض الزمخشري بعضًا من صور الإبداع الدلالي للفصل، منها:

- **الفصل يمنح التراكيب جزالة و فخامة:**

كدأب الزمخشري من عرض الأمر بطريقة السؤال والإجابة،إذ يذهب بالتراكيب مذهبًا نفسيًّا دلاليًّا؛ حين يشير إلى أن وجوب الفصل فى قوله – تعالي: " الله يستهزئ بهم ".([3]) مبعثه إظهار جبروت الله، و إبراز حالة الضعف التي عليها العصاة المنافقون المعاندون؛ و أن الله – تعالي – لا يأبه باستهزائهم، لما يحل بهم من النكال و الهوان و الذل، لذا انفصل ذلك الخبر عمَّا قبله، و هو قوله – تعالي: " قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ".([4]) لأن استهزاءهم إلى الله ليس باستهزاء؛ و حسن الانفصال حتى يتولى الله الاستهزاء بهم انتقامًا للمؤمنين، و ليفصل حال العصاة عن حال المؤمنين.

يقول الزمخشري: فإن قلت: كيف ابتدئ قوله: " الله يستهزئ بهم ". و لم يعطف على الكلام قبله؟ قلت: هو استئناف فى غاية الجزالة و الفخامة، و فيه أن الله – سبحانه و تعالي – هو الذى يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ، الذى ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء، و لا يُؤبه له فى مقابلته، لما ينزل بهم من النكال و الهوان و الذل، و فيه أن الله – تعالي – هو الذى يتولى الاستهزاء بهم انتقامًا للمؤمنين، و لا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله ".([5])

([1]) البيت من بحر الطويل، قال العينى: لم يُسمَ قائله، وهو فى خزانة الأدب بلا نسبة، ٥: ٢٠٧، وهو: شاهدٌ على إبدال الجملة من الجملة، فإن جملة: (لا تُقيمن عندنا) بدلٌ من جملة (ارحل)، و الثانية أظهر فى إفادة المقصود. انظر: مغنى اللبيب: ٢٤٦، و انظره فى:: ٣٧١

([2]) مفتاح العلوم: ١١٠

([3])سورة البقرة: ١٥

([4]) البقرة: ١٤

([5]) الكشاف ١: ٧٨

- **إذا تداخلت الدلالات:**

قد تنفصل التراكيب النحوية، و إن ربطت بينها مواد معجمية، أو معنى متداخل أو قريبٌ، و يصبح التركيب الثانى استئنافًا، و أفضل الاستئناف – عند الزمخشري – ما كان ردًّا لخبر سابق، لأن الفصل بين التراكيب فى هذا الموضع ممَّا يزيد الكلام فخامة و جزالة و قوة، و يمنح المتلقى متعة التشوق لتمام الدلالات، كما فى قوله – تعالي: " إنما نحنُ مستهزئون. اللهُ يستهزئ بهم. ([1]) جاء فى الكشاف فى قوله – تعالي – السابق: " فإن قلت: كيف ابتدئ قوله: " اللهُ يستهزئ بهم. ([2]) و لم يُعطَفْ على الكلام قبله؟. قلت: هو استئنافٌ فى غاية الجزالة و الفخامة، و فيه أن الله – عزَّ و جلَّ – هو الذى يستهزئُ بهم الاستهزاء الأبلغ، الذى ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء، و لا يؤبَه له فى مقابلته، لما يُنزِلُ بهم من النكال، و يُحل بهم من الهوان و الذلِّ، و فيه أن الله هو الذى يتولى الاستهزاء بهم انتقامًا للمؤمنين، و لا يحُوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله ". ([3])

- **إذا تعلَّق الأمر بترجيح وجه نحوي:**

يُبين الزمخشري إبداع الفصل فى ترجيحه وجهٍ نحوى على آخر، أو قراءةٍ على أخري، فقد استحسن الفصل فى قوله – تعالي: " و لا أصغرُ من ذلك و لا أكبرُ إلَّا فى كتابٍ مبينٍ ". ([4])عمَّا سبقه من قوله – تعالي: " و ما تكون فى شأنٍ و ما تَتْلوا منه من قرءانٍ و لا تعملون من عمل إلَّا كُنَّا عليكم شهودًا إذ تُفيضون فيه و ما يعزُب عن ربِّك من مثقال ذرَّةٍ فى الأرض و لا فى السماء و لا أصغرُ من ذلك و لا أكبرُ إلَّا فى كتابٍ مبينٍ ". ([5])

فبعد أن أقرَّ بجواز النصب و الرفع فى قوله: (أصغر) و (أكبر)، رجَّح النصب على أن تكون القراءة على نفى الجنس، كقولك: لا حول و لا قوَّة إلَّا بالله، و هو كلامٌ منقطعٌ عمَّا قبله، كما أن فى قراءة الرفع على الابتداء ليكون

([1])سورة البقرة: ١٤ – ١٥
([2])سورة البقرة: ١٤ – ١٥
([3])الكشاف ١: ٧٨
([4])سورة يونُس – عليه السلام: ٦١
([5])سورة يونُس – عليه السلام: ٦١

التركيب كلامًا برأسه. ثم يتساءل: هل يصح عطف المرفوع (أصغرُ) على مثقالُ ذرَّةٍ، كأنه قيل: لا يعزب عنه مثقالُ ذرَّةٍ أصغرُ و أكبرُ، و زيادة (لا) لتأكيد النفي، و عطف المفتوح (أصغرَ) على ذرةٍ؛ [انه فتحٌ فى موضع الجر لامتناع الصرف، كأنه قيل: لا يعزبُ عنه مثقالُ ذرةٍ و لا مثقالُ أصغرَ من ذلك و لا أكبرَ؟.

ويقرِّرالزمخشري أن حرف الاستثناء يأبى ذلك، إلَّا إذا جعلت الضمير فى عنه للغيب، و جعلت الغيب اسمًا للخفيات، قبل أن تُكتبَ فى اللوح. و يميل إلى القول بأن العطف على المحل أو على اللفظ فيه إشكال فى هذا الموضع، لأن قولك: لا يعزب عنه شيءٌ إلا فى كتابٍ مشكلٌ، لذا فهو يستحسن الفصل، و أن يكون قوله – تعالي: " و لا أصغرُ من ذلك و لا أكبرُ إلَّا فى كتابٍ مبينٍ ". (١) كلامًا مستلًّا، حفاظًا على الدلالة، و أمنًا للبس، و فرارًا من الإشكال. (٢)

- **يكون فى الفصل نكتة بلاغية تضفى جمالًا على التراكيب:**

أحيانًا يحمل الفصل نكتة بلاغية، يوجهها المؤلِّف إلى المتلقى، فى صورة من الغموض الفنى، الذى يحسُن به التركيب، كما فى قوله – تعالي: " و إذا جاءتهم آيةٌ قالوا لن نؤمنَ حتى نُؤْتَى مثل ما أُوتى رسلُ الله اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه.. ". (٣) فنزول الآية الكريمة مرتبطٌ بادِّعاء الوليد بن المغيرة، حين قال: لو كانت النبوة حقًّا لكنت أولي بها منك، مخاطبًا بذلك رسولَ الله – صلى الله عليه و سلم – لأنِّى أكبرُ منك سنًّا، و أكثرُ منك مالًا. (٤)

وينطلق الزمخشري من سبب النزول، و يجعله قسيمًا فى تحديد الدلالة، فيقرر أنه عند هذا الحد ينتهى ادعاؤهم، و يحسن الفصل، ليستأنف الخطاب القرآنى كلامًا جديدًا، ردًّا على كلامهم، يقول: " (الله أعلمُ) كلامٌ مستأنفٌ للإنكار عليهم ". (٥)

---

(١)سورة يونُس – عليه السلام: ٦١
(٢)انظر: الكشاف ٢: ٢٢٩، ٣: ٥٠٧
(٣)سورة الأنعام: ١٢٤
(٤)انظر: فى البلاغة القرآنية (اسرار الفصل و الوصل)، د: صبَّاح عبيد دراز، ط١،مطبعة الأمانة، شبرا، مصر، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م: ٧٠
(٥)الكشاف ١: ٦٥٦

- **<u>يُسهم الفصل فى تحديد المعنى المقصود من كل تركيب و تثبيته و توكيده:</u>**

جعل الزمخشري من آلية الفصل مشهدًا حواريًّا، و لاسيما إذا كان التركيب الثانى جوابًا لسؤالٍ مقدَّر، فيصبح الخطاب أكثر حيوية، و تتوالى معطياته اللغوية؛ لترسم صورة تفصيلية للعلاقة بين المؤلف و المتلقى.

فأشار الزمخشري إلى أن قوله – تعالي: " هم فيها خالدون ". (١) استئنافٌ بعد قوله – تعالي: " ففى رحمة الله ". (٢) لأن التركيب الثانى استقلَّ عن التركيب الأول، و حسُن الفصل بينهما تقديرًا لأفق انتظار المتلقى، الذى يُبادر بالسؤال: كيف يكونون فيها؟. فقيل: هم فيها خالدون، لا يظعنون عنها و لا يموتون، و فى ذلك إدراك منه لدقائق فن الفصل، فلم يُقر بارتباط التركيب الثانى بالأول ارتباطًا حتميًّا، بل تعمق فى معطيات النص، حتى جعله مرتبطًا بدلالة أعمق و أبعد، و هى صورة تُجسد حوارًا نفسيًّا لفظيًّا بين مؤلِّف مُبدع و قارئ ضمنى. (٣) و قد يكون تكرير الضمائر تأكيدًا للمعنى(٤)، أو قد يكون التكرير؛ بقصد الإيضاح، أو لتقرير المعاني فى النفوس و تمكينها فى القلوب، وكما يكررُّ المفرد فى قولك: جاء زيدٌ. (٥)

- **مراعاة أفق انتظار المتلقى (استقلال المعانى):**

فقد تقع الواو بين التركيبين لتفصل بين معنيهما؛ ليصبح لكل تركيبٍ معنى مفيد مستقل عن سابقه أو لاحقه، و هنا تصبح الواو فاصلًا دلاليًّا حتميًّا؛ فإذا تكررت الجملتان فى مقام آخر، و سقطت الواو فى أحدهما؛ كان الكلام واحدًا، يُقرر بعضه بعضًا. (٦) و فى ذلك التصرف مراعاة لأفق الانتظار لدى المتلقى على اختلاف أنماطه.

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٧
(٢) سورة آل عمران: ١٠٧
(٣) ومثله فى ذلك قوله – تعالي: " كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف..:. سورة آل عمران: ١١٠ فقد جاء قوله – تعالي: تأمرون ". كلامًا مستأنفًا بُيِّن به كونهم خير أمة، كما تقول: زيدٌ كريمٌ يُطعم الناس و يكسوهم، و يقوم بما يُصلحهم. انظر الكشاف ١: ٣٦٥ – ٣٦٦، ٢، ٥٣٩
(٤) انظر: الكشاف ٤: ٢٠٠
(٥) الكشاف ٤: ٦٦١ - ٦٦٢
(٦) الفصل و الوصل، د: منير سلطان: ٩٥

ومن الأمثلة التى ساقها الزمخشري قوله – تعالي: " قالوا إنَّما أنت من المسحَّرين. وما أنت إلَّا بشر مثلُنا وإنْ نظنُّك لمن الكاذبين ". ([1]) فقد يؤدِّى الاتِّصال - بأدواته اللفظية - إلى إضافة معنى غير مقبول للتركيب النحوي، أو يمنح سعة فى الدلالة، لا يتحملها ذهن المتلقى و لا السياق، كما فى قوله – تعالي: " قالو إنما أنت من المُسحَّرينَ. ما أنت إلَّا بشرٌ فأتِ بآية إن كنتَ من الصادقينَ ". ([2]) قد تمثل عبئًا على أفق الانتظار لدى المتلقى الخالى الذهن، حين تنفتح على ذهنيته فيوض دلالية يكَلُّ منها.

لذا يُشير الزمخشري إلى أن الوصل سيكون سببًا فى فساد الدلالة، و فى إيراد معانى غير مقصودة، جاء فى الكشَّاف: " فإن قلتَ: هل اختلف المعنى بإدخال الواو – ها هنا – و تركها فى قصة ثمود ([3])؟. قلتُ: إذا أُدخلت الواو؛ فقد قُصد معنيان كلاهما منافٍ للرسالة عندهم، التسخير و البشرية، و أن الرسول لا يجوز أن يكون مسخَّرًا، و لا يجوز أن يكون بشرًا؛ و إذا تُركَت الواو؛ فلم يُقصد إلَّا معنى واحدُ، و هو كونه مسحَّرًا، ثم قُرِّر بكونه بشرًا مثلهم. ([4])

و ما ذهب إليه الزمخشري يُقوى الصورة الدلالية للبنية العميقة، حيث لا يجتمع معنيان يبدوان متضادين فى سياق الإشارة إلى معنى واحد، فلا يجتمع التسحير و البشرية مع كمال الرسالة؛ فإذا جاءت الواو؛ فكأنهم أرادوا المعنيين معًا، لذا حسُن الفصلُ.

ويضرب الزمخشري مثالًا لذلك، و هو قوله – تعالي: " و قال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أُنزل علينا الملائكةُ أو نرى ربَّنَا لقد استكبروا فى أنفسهم و عتوْ عُتُوًّا كبيرًا ". ([5]) فهو يستحسن الفصل بين الجملتين الخبريتين: " و قال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أُنزل علينا الملائكةُ أو نرى ربَّنَا ". و " لقد استكبروا فى أنفسهم و عتوْ عُتُوًّا كبيرًا ". لأن الجملة الثانية جاءت على سبيل التعجب، و حتى لا تختلط بقولهم، فتصبح استئنافًا يحمل معنى جديدًا، يقول: " واللام جوابُ

([1]) سورة الشعراء: ١٨٥، ١٨٦
([2])سورة الشعراء: ١٥٣، ١٥٤
([3]) إشارة إلى قوله – تعالي:" و أمطرنا عليهم مطرًا فساء مطرُ المنذرين ".الآية رقم: ١٧٣ من سورة الشعراء.
([4])الكشاف ٣: ٢٩٤
([5])سورة الفرقان: ٢١

قسمٍ محذوف، و هذه الجملة – فى حُسن استئنافها – غاية، وفى أسلوبها قول القائل: (من بحر الطويل)

و جارةٍ جَسَّاسٍ أبانا بنابِهَا كُلَيبًا غَلَتْ نابٌ كليبٌ بواؤُها.([1])

و فى فحوى هذا الفعل دليلٌ على التعجب، من غير لفظ التعجب، ألا ترى أن المعنى: ما أشدَّ استكبارهم و ما أكبرَ عُتُوَّهم، و ما أغلى نابًا بواؤها كليبٌ. ([2])

- إذا جسَّدت التراكيب مشهدًا حواريًّا:

فهو يستحسن الفصل تقديرًا لسؤال سائل، كما فى قوله – تعالي: " فسجدوا إلَّا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربِّه ". ([3]) يقول الزمخشري: " (كان من الجن) كلام مستأنف جارٍ مجرى التعليل، بعد استثناء إبليس من الساجدين، كأنَّ قائلًا قال: ما له لم يسجد؟. فقيل: كان من الجن (ففسق عن أمر ربه) و الفاء للتسبيب، جعل كونه من الجن سببًا فى فسقه، فصار كل كلامٍ قائمًا برأسه. ([4])

- <u>يُحقق الفصل تناسقًا للجمل (البعد الجمالى)</u>

من المفيد الإشارة إلى أنه يُبرز المعنى على ضوء من الأبعاد البلاغية، التي تتحكم في كلِّ توجيهاته، بأن تتناسق التراكيب النحوية من داخل أنفسها، و ذلك الترابط أقوى من الترابط اللفظي، فيغدو الفصل أبلغَ من الوصل. ([5]) لذا أوجب البلاغيون الفصل؛ فيُترك الوصل لدفع توهم فساد المعنى.

وقد ذكر الزمخشري في تفسير قوله – تعالي: " ألم. ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه. هدى للمتقين ". ([6]) أن محل قوله – تعالي: (هدًى للمتقين). الرفع، لأنه خبر مبتدإ محذوف، أو خبر – مع لا ريب فيه – لذلك، أو مبتدأ؛ إذا جُعل الظرف المقدَّمُ خبرًا، و يجوز أن يُنصب على الحال، و العامل فيه معنى الإشارة أو

([1])جساس: قاتلُ كليب، و بسوس: امرأة يقال لها: خالته، و البسوس سبب لنشوب الحرب بين بكر و تغلب، لأن كليب رماها بسهم فقتلها، أبانا: أى: قابلنا، من البواء، و هو التساوى فى القصاص، و الشاعر يقول: لقد كان قتل كليب لقاء قتله ناقة البسوس خالة جساس، و ما أغلى ناقة كفؤها كليب نفسه، و الاستئناف جميل فى البيت. انظر: الكشاف ٣: ٢٣٩

([2])الكشاف ٣: ٢٣٩ – ٢٤٠

([3]) سورة الكهف: ٥٠

([4]) انظر: الكشاف ٢: ٥٣٩، ٤: ٤٥٢

([5]) انظر: دلالات التراكيب، د: محمد محمد أبو موسي: ١٣٩

([6]) سورة البقرة: ١ – ٣

الظرف. فجاءت جملة (لا ريب فيه) توكيدًا للجملة الأولى، و قد غاب العاطف فى هذا الموضع لأمور منها:

١- أن التأكيد متعلقٌ بالمؤكّد تعلقًا تامًّا.

٢- تحقق التناسب و لذا تُرك العطف الظاهر، و حسن الوصل استنادًا على التناسق الداخلى بين الأنساق الدلالية الجزئية، و من ثّمَ الكلية.

٣- عدم وجود مانع دلالى من الوصل كالتناقض الدلالي أو الاختلاط أو فسد المعنى، أو سوء الفهم، أو مجانبة التأويل للصواب.

يقول: " و الذى هو أرسخ عُرقًا في البلاغة أن يَضرب عن هذه الحال صفحًا، وأن يُقال: إن قوله: (ألم) جملةٌ برأسها، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و (ذلك الكتاب) جملة ثانية، و (لا ريبَ فيه) ثالثة، و (هدى للمتقين) رابعة، و قد أُصيب بترتيبها مفصل البلاغة، و موجب حُسن النظم، حتى جىء بها متناسقة، هكذا من غير حرف نسق؛ و ذلك لمجيئها متآخية، أخذًا بعضها بعُنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، و هلم جرًّا إلى الثالثة و الرابعة.

وبيان ذلك أنه نبَّه – أوَّلًا – على أنه الكلام المتحدَّى به، ثم أُشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريرًا لجهة التحدِّي، و شدًّا من أعضاده، ثم نفي عنه أن يتشبث به طرف من الريب، فكان شهادة و تسجيلًا بكماله. (١)

ثامناً: إضافات الزمخشري فى هذا الباب، وفيه:

أبعاد نحو النص.

يسوق الزمخشري مثالًا تطبيقيًّا، و ليكن من سورة الإخلاص، على سبيل التمثيل، لنؤكد مجاوزة الزمخشري حدود نحو الجملة إلى نحو النص، و إن كان الزمخشري محسوبًا على نحاتها، و لنؤكِّد إدراكه بأن قيام النص مرهون بعلاقات الربط و الترابط التى يُجسدها الوصل، و أنه من الإجحاف أن نحصر درس القدماء – و لاسيما الزمخشري – فى حدود نحو الجملة، و الادِّعاء بأن المصطلح وافدٌ غربيّ قُح.

(١) الكشَّاف ١: ٥٠، ٤: ٣١٠، ٤: ٣١٥

وهو قوله – تعالي: " قل هو الله أحدٌ. اللهُ الصمدُ. لم يلدْ و لم يُلدْ. و لم يكنْ له كُفُوًا أحدٌ ". ([1]) فقد جعل الزمخشري الفعل: (قُلْ) مفتاحًا دلاليًّا للنص الخبري، فيقول: "(هو) ضمير الشأن، و (اللهُ أحدٌ) هو الشأن، كقولك: هو زيدٌ منطلقٌ. كأنه قيل: الشأن هذا، و هو أن الله – تعالي – واحدٌ لا ثانى له، فإن قلت: ما محل هو؟. قلتُ: الرفع على الابتداء، و الخبر الجملة؛ فإن قلت: فالجملة الواقعة خبرًا لابد فيها من راجع إلى المبتدإ فأين الراجع؟.

قلتُ: حُكم هذه الجملة هو حُكم المفرد فى قولك: زيدٌ غلامُك. فى أنه هو المبتدأ فى المعنى، و ذلك أن قولك: (الله أحدٌ) هو الشأن الذى هو عبارة عنه، و ليس كذلك زيدٌ أبوه منطلقٌ؛ فإن زيدًا و الجملة يدلان على شيئين مختلفين، فلابد مما يصل بينهما ". ([2])

فقد ارتبطت الآيات السابقة بعلاقة معنوية، ([3]) و هى علاقة الإسناد؛ حين جعل (هو) مبتدأً و الجملة بعده خبرًا؛ كما أدرك ترابط التراكيب بالروابط اللفظية و ذكر منها الضمائر، حين تساءل عن الراجع فى جملة الخبر، فأكَّد أن الخبر هو المبتدأ فى المعنى، كما ذكر من علاقات الربط المعنوية علاقة البدلية، حين ذكر أن قوله: (أحدٌ) بدل من قوله: (الله) أو على: هو أحد. و هو بمعنى واحد؛ ثم يؤكِّد واحديته بأنه لا يُجَانَس، فهو قديم لا أول لوجوده، و لم يكافئه أحدٌ، على سبيل التقرير و البتِّ لكل ما سبق. ([4]) و يُفهم من الكلام السابق أن الزمخشري([5])عندما تحدث عن فن الوصل، بوصفه رابطًا نصيًّا أشار إلى وجوب التكامل بين النظام النحو و الدلالة، و كأن المتجاورات التركيبية قد تماسكت بعلاقات نحوية دلالية سياقية، تقوى عرى الترابط بين التراكيب بعضها البعض الآخر.([6])

([1]) سورة الإخلاص: ١ – ٤
([2]) الكشاف ٤: ٧٣
([3]) منهج التحليل الشبكى و الدرس اللغوي المعاصر، د: محمد خليل نصر الله، كتاب المؤتمر الثالث للعربية و الدراسات النحوية (العربية بين نحو الجملة و نحو النص) كلية دار العلوم، القاهرة، محرم ١٤٢٦هـ / فبراير ٢٠٠٥م: جـ ٢: ٨٩٧
([4]) الكشاف ٤: ٧٣
([5]) انظر: الكشاف ٢: ٧٥
([6]) انظر: اللغة و بناء الشعر، د: محمد حماسة عبد اللطيف، (د. ط) المكتب الفنى، القاهرة، ١٩٩٢م: ٣٨

ولعل مما أضافه الزمخشري - فى هذا الباب - حديثه عن اتصال التراكيب اتِّصالًا خفيًا أو ظاهرًا، مقرِّرًا أن فى الاتصال الخفى قوَّةً، فعبَّر عن الوصل الخفى أو التقديري بباب الفصل، و أنه أقوى من الوصل الظاهر، و الذى من أدواته حروف العطف و الروابط، نحو: الأسماء الموصولة، و الإشارة، و الضمائر، و غير ذلك من روابط التراكيب النحوية. يقول فى قوله – تعالي: " و يا قوم اعملوا على مكانتكم إنِّى عاملٌ فسوف تعلمون. من يأتيه عذاب يُخزيه و من هو كاذبٌ و ارتقبوا إنِّى معكم رقيب. ([1]): " فإن قلتَ: أىُّ فرق بين إدخال الفاء و نزعها فى (سوف يعلمون)؟. قلتُ: إدخال الفاء وصلٌ ظاهرٌ بحرف موضوع للوصل، و نزعها وصلٌ تقديريٌّ بالاستئناف (كأن لم يغنوا)، كأنهم قالوا: فماذا يكون إذا عملنا على مكانتنا، و عملت أنت، فقال: سوف تعلمون. فوصل تارة بالفاء، و أخرى بالاستئناف؛ للتفنن فى البلاغة، كما هى عادة بلغاء العرب، و أقوى الوصلين و أبلغهما الاستئناف، و هو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه. ([2])

- **أثر السياق فى آلية الوصل أو الفصل.**

و لعل من إضافات الزمخشري: إنه قد أدرك أثر السياق فى استحسان الوصل أو الفصل، أو تقبيح أىٍّ منهما، فقد أخضع هذا الاستحسان من عدمه للمقام المحيط، و ليس بخافٍ ذلك الدور الحاسم الذى يُؤديه السياق فى تحديد القصد، كما فى قوله – تعالي: " و للآخرةُ خيرٌ لك من الأولي ". ([3]) و كيف اتصلت بما قبلها؛ يؤكد الزمخشري أن السياق هو سبب ذلك الارتباط، قال: " فإن قلتَ: كيف اتصل قوله – تعالي: " و للآخرةُ خيرٌ لك من الأولي ". ([4]) بما بما قبله؟. قلتُ: لما كان فى ضمن نفى التوديع و القلى أن الله مواصلك بالوحى إليك، و أنك حبينُ الله – و لا نرى كرامة أعظم من ذلك و لا أجلَّ منه – أخبره أن حاله فى الآخرة أعظم من ذلك و أجلُّ؛ و هو السبقُ و التقدمُ على جميع أنبياء

([1])سورة هود: ٩٣
([2])انظر: الكشاف ٢: ٢٨١ - ٢٨٥
([3]) سورة الضحى: ٤
([4]) سورة الضحى: ٤

الله و رسله، فقد أوجب مقام المفاضلة و تطمين نفس النبى – صلى الله عليه و سلم – و أن الله – تعالي – ليس بتاركه وصل كل ذلك بالكرامة فى الآخرة. ([1])

كما ركَّز الزمخشري حديثه حول التناسق الداخلى، فى إشارة إلى دور السياق فى استحسان الوصل أو الفصل، فقد حسَّن السياق الوصل فى قوله – تعالي: " فلما جاءت قيل أهكذا عرشُك قالت كأنَّه هو و أُوتينا العلم من قبلها و كنَّا مسلمين ". ([2]) يقول الزمخشري: " (و أُوتينا العلم) من كلام سليمان و ملئه؛ فإن قلت: علام عطف هذا الكلام؟. و بم اتَّصل؟. قلتُ: لما كان المقام الذى سُئلت فيه عن عرشها، و أجابت بما أجابت به مقامًا أجرى فيه سليمان و ملؤه ما يناسب قولهم: (و أُوتينا العلم). نحو أن يقولوا عند قولها: (كأنه هو): قد أصابت فى جوابها. لذا عطفوا على ذلك قولهم: (و أُوتينا) نحن العلم، فكأن الدافع للوصل هو مقام الإقرار بصحة ما جاء من عند سليمان. ([3])

تاسعًا: الخاتمة، و فيها:

النتائج، و منها:

- ليس صحيحًا الادِّعاء بأن الزمخشري لم يُضف جديدًا إلى فن الوصل و الفصل، على ما أتى به عبد القاهر الجرجاني، فيُحمد للرجل انتقالُه بعمل عبد القاهر من التنظير إلى التطبيق، الذى استنبط منه معانى جديدةً ضمَّنها تطبيقاته، كالتناسق الداخلى، و اختلال الدلالة و تناقضها، و بُعد الظاهر عن تمام القصد، و تجنب التأويلات غير المقبولة من قبل المتلقى، و إدراكه للربط مفهومًا و تطبيقًا.
- وتجدر الإشارة إلى أن تشعب قوانين الفصل و الوصل قد أصاب البلاغة و لاسيما بعد الزمخشري بالضعف و التأخر، إذ إن تداخلها قد جعل منها علمًا دقيقًا وعرًا عزَّ من يدرسه أو يُقبل عليه.
- و جنوحًا إلى التخفيف، فيُقال: إن المقياس الحقيقي الضابط لآلية الفصل و الوصل هو: أن تؤدى التراكيب الموصولة أو المفصولة – فى إطار السياق المحدد – الغرض من صياغتها، و هو إيصال المعنى إلى المتلقى، بصورة – و

([1]) انظر: الكشاف ٤: ٦٥٧
([2]) سورة النمل: ٤٥
([3]) انظر: الكشاف ٣: ٣٢٧

فى هيئة – واضحة، فإن أدَّى الوصل إلى خلل دلالى، لا يقبله العقل، و لا يعضده شاهد تطبيقي، وجب الفصل.

- **إن أدى الفصل إلى إبهام المقصود و تضييعه، أو تشويه المعنى، أو فقدان منطقية الدلالة وفق هيئة العناصر اللغوية المشكلة للتراكيب، أو انتقص من جماليات الأساليب؛ حينئذٍ يجب الوصل.**
- **بدا احتكام آلية الوصل و الفصل عند الزمخشري إلى الذوق الراقي و الإبداع الدلالي، و القريحة الصافية، و الطبع الجيد، فليس من جمال الذوق الوصل حين تنقطع العلاقة بين المتجاورتين، و كذلك ليس من الجمال الفصل حين تتحقق لُحمة الدلالة بين الجملتين.**
- **أكد الزمخشري أن فى إحاطة طرفى الخطاب بضوابط الفصل و الوصل استقرارًا للمعنى المقصود، و مراعاة لأفق التلقى عند مستخدم النص. و هذا – كلُّه - يحسم – لاشك – مسألة الأسبقية فى الحديث عن أدوات الربط و دورها فى تحليل النصوص مما تُنادى به اللسانيات الحديثة... ([1])**
- **<u>التوصيات:</u>**

و منها:

- **إلقاء الضوء على تناوُل الزمخشري للتراكيب النحوية و أبعادها.**
- **دراسة المعايير النصية لدى الزمخشري، و لا سيما فى كتابه الكشاف..**

والله أسأل أن يكون عملى هذا خالصًا لوجهه الكريم، و أن يكون فيه إماطة ما وقع على عالمنا الزمخشري ذلك العالم العلم الفذُّ.

و الله – تعالي- من وراء القصد..

([1]) انظر: التماسك النصِّى فى اللغتين العربية و الإنجليزية، د: يوسف عليان، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، ٢٠٠٢م: ٩٢، و انظر: Hailday. Hassan. Cohision in English , Long mans. London. 1994 ; 226.

المصادر و المراجع العربية:

- اتساق النص فى سورة الكهف، د: فريد حيدر، (د. ط)، زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- الإشارات و التنبيهات فى علم البلاغة، محمد بن على الجرجاني، تحقيق د: عبد القادر حسن، ط١، دار مصر للطباعة، القاهرة، (د. ت)
- البلاغة العربية (قراءة أخرى) د: محمد عبد المطلب، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الجيزة، مصر، ١٩٩٧م.
- بناء الجملة العربية، د: محمد حماسة عبد اللطيف، (د. ط)، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- البيان و التبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ط١، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٨م. الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر،ع ٨٥ (د. ت).
- تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، د. محمد مفتاح، ط١، بيروت، دارة التنوير، ١٩٨٥م، و ط٣، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٢م.
- تحليل الخطاب الشعري من منظور اللسانيات الحديثة (تحولات الخطاب النقدي المعاصر)، د: أحمد مداس بن عمار، كلية الآداب، جامعة اليرموك، عالم الكتب الحديثة، إربد، الأردن، ٢٠٠٦م.
- التماسك النصِّى فى اللغتين العربية و الإنجليزية، د: يوسف عليان، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، ٢٠٠٢م.
- جواهر البلاغة فى المعاني و البيان و البديع، تأليف: السيد أحمد الهاشمى، ضبط و تدقيق و توثيق د: يوسف الصميلى، ط١، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، (د. ت).
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمود محمد شاكر، ط٢، مكتبة الخانجي القاهرة، ١٩٨٩وط مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٠ م. وتصحيح: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، ١٩٧٨م.

- دلالات التراكيب (دراسة بلاغية) د: محمد محمد أبو موسى، ط٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م
- دلالة الألفاظ، د: إبراهيم أنيس، ط٣، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٩٤م.
- دلالة السياق و أثرها فى الأساليب العربية د: دردير محمد أبو السعود، بحث من منشورات مجلة اللغة العربية، أسيوط، ع٧.
- دور الكلمة فى اللغة، ل: ستيفن أولمان، ترجمة: كمال محمد بشر، القاهرة، ١٩٦٢ م.
- ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبه عزام، ط١، دار المعارف، مصر: ١٩٦٣م.
- الربط و الروابط بين نحو الجملة و نحو النص، د: حسن محمد نور المبارك كتاب المؤتمر الثالث للعربية و الدراسات النحوية (العربية بين نحو الجملة و نحو النص)، محرم ١٤٢٦هـ / فبراير ٢٠٠٥م: ج٢
- الصناعتين، لأبي هلال العسكرى، (د. ط) دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨١م.
- صندوق الدنيا للمازني، دراسة نظرية تطبيقية فى الأسلوب و التناص، د: محمد عبد العال، كتاب المؤتمر الثالث للعربية و الدراسات النحوية، العربية بين نحو الجملة و نحو النص، كلية دار العلوم، القاهرة، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥ م ج٢
- علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات) تون. أ. فان دايك، ترجمة د: سعيد حسن بحيري، ط١، دار القاهرة للنشر و التوزيع، القاهرة، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٢م.
- علم لغة النص (المفاهيم و الاتجاهات) د: سعيد حسن بحيري، ط١، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع، القاهرة، ٢٠٠٤م.
- عناصر السبك بين القدماء و المحدثين، د: نادية رمضان محمد النجار، كتاب المؤتمر الثالث للعربية و الدراسات النحوية (العربية بين نحو الجملة و نحو النص)، محرم ١٤٢٦هـ / فبراير ٢٠٠٥م: ج٢
- الفصل و الوصل فى القرآن الكريم، د: منير سلطان، (د. ط) دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م: ٢٣

- فى البلاغة القرآنية (اسرار الفصل و الوصل)، د: صبَّاح عبيد دراز، ط١،مطبعة الأمانة، شبرا، مصر، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
- فى الفكر اللغوي، د: محمد فتيح، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.
- الكتاب، سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م: ١: ٣٩٩
- الكشاف، للزمخشري، شرح و ضبط و مراجعة: يوسف الحمادي، (ط١) مكتبة مصر للنشر، القاهرة، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م.
- لسان العرب، لابن منظور، (د. ط) دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٦٨م
- اللغة و بناء الشعر، د: محمد حماسة عبد اللطيف، (د. ط) المكتب الفنى، القاهرة، ١٩٩٢م
- مفتاح العلوم للسكاكى، ضبطه و علق عليه نعيم زرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧ هـ\ ١٩٨٧م.
- مفهوم الحجاج عند بيرلمان و تطوره فى البلاغة المعاصرة، م عالم الفكر، م ٢٨، ع ٣
- منهج التحليل الشبكى و الدرس اللغوي المعاصر، د: محمد خليل نصر الله، كتاب المؤتمر الثالث للعربية و الدراسات النحوية (العربية بين نحو الجملة و نحو النص) كلية دار العلوم، القاهرة، محرم ١٤٢٦هـ / فبراير ٢٠٠٥م.
- النص و الخطاب و الإجراء، روبرت دى بوجراند، ترجمة د: تمام حسان، ط١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٨م.